سعيد بوخليط

غاستون باشلار

نحو نظرية في الأدب

دار الفارابي منشورات الاختلاف

الكتاب: غاستون باشلار: نحو نظرية في الأدب
المؤلف: سعيد بوخليط
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: * دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

* منشورات الاختلاف
149 شارع حسيبة بن بو علي
الجزائر العاصمة ـ الجزائر
هاتف/فاكس 21676179 213+
email: editions.elikhtilef@gmail.com

الطبعة الأولى 2011
ISBN: 978-9953-71-703-6

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

Jamais deux fois nous n'avons fait la même lecture. Quel mauvais professeur de littérature nous eussions fait ! nous rêvons trop en lisant.

G. Bachelard.

La page blanche! ce grand désert à traverser, jamais traversé. Cette page Blanche qui reste blanche à chaque veillé n'est-elle pas le grand signe d'une solitude sans fin recommencée ? et quelle solitude s'acharne contre le solitaire quand elle est celle d'un travailleur qui non seulement veut s'instruire, qui non seulement veut penser, mais qui veut écrire. Alors la page blanche est un néant, un néant douloureux le néant de l'écriture.

G. Bachelard.

مقدمة(*)

[I]

تنقسم أعمال غاستون باشلار (1884-1962) إلى قسمين متميزين: قسم، يظهر تأملاته الإبستمولوجية حول تطور الفكر العلمي المعاصر، والعوائق التي يواجهها حينما تنتقل مقولات الحس المشترك إلى مقولات لهذا العلم.

ويفكر باشلار أيضا من خلال ذلك، في الدور الذي تلعبه الرياضيات في هذا التطور العقلاني، والدروس التي يمكن استخلاصها خاصة بالنسبة لبيداغوجيا العلوم الدقيقة. ونراه هنا، يسائل فلسفة علوم عصره ولاسيما الوضعية والعقلانية والواقعية...، متهما جميعها بكونها ستاتيكية جدا وبالتالي عاجزة عن أن تنصف معرفة وفكراً يتميزان بالدينامية.

الخيار بالنسبة إليه إذن، هو أن نأخذ من تاريخ العلم خاصيته العقلانية المنفتحة، التي تؤدي إلى ثورات مفهومية وذاتية تعتبر جوهرية في فهم جذري للعالم الفيزيائي.

(*) بعثت لنا الباحثة هذه المقدمة، أصلا باللغة الفرنسية.

القسم الآخر من مشروع باشلار، كرسه بشكل حصري تقريبا لتجليات الأدب والفن والتي تمليها طاقة العناصر الكونية الأربعة: النار والماء والأرض والهواء، على الخيال المبدع للذات الحالمة. سنلاحظ هنا، توظيفه السهل -كما فعل ذلك في إبستمولوجيته- لمبادئ علم النفس التحليلي اليونغي، باعتباره منهجية تمكننا من الوصول إلى العقد وتجلياتها في أعمال الفن. وكذا الظاهراتية، التي مكنته من تناول الصورة (l'image) في الآن نفسه وهي تتشكل في روح المبدع والقارئ.

إن تلقي مؤلفات ومقالات باشلار خارج فرنسا، ظل دائما انتقائيا. في الولايات المتحدة الأميركية ومع استثناءات قليلة، فإن فلاسفة العلم، يجهلون بالمرة عمله الإبستمولوجي، والأكاديميون الذين يعرفونه هم بالأحرى مختصون في سوسيولوجيا العلم. في حين، يتم تداول نقده الأدبي بشكل مألوف عند الباحثين في الفن، لكنهم على النقيض يجهلون الباشلارية العلمية.

في فرنسا، اهتم الباحثون بكتاباته حول العناصر. أما الإيطاليون فقد اتجه انتباههم كليا إلى فلسفة باشلار في العلوم.

رؤية معرفية إذن، أحادية الجانب، جزئية وغير مكتملة توجد في كل مكان من العالم.

إن قيمة اختيار الباحث سعيد بوخليط، للنصوص التي ترجمها في عمله الحالي، تدخل في إطار مشروعه، وضع

جمهور اللغة العربية وكذا أكاديمييها ضمن سياق مختلف المنظورات الباشلارية مع تركيز خاص على الجزء الشعري، بناء على تأملات مفكرين ينتمون إلى ثقافات وجنسيات مختلفة: عرب، وأوربيون وأميركيون.

قام سعيد بوخليط باختيار مقالات ترصد مجموعة من المعطيات البيوغرافية حول غاستون باشلار، وبالتالي تمكُن القارئ من تمثل الحقبة المهنية والشخصية لهذا الرجل الفذ.

[II]

ينقسم العمل الذي بين أيدينا إلى ثلاثة أقسام:

1) ترجمات.

2) مقاربات نقدية.

3) حوار.

جاءت المقالة الأولى في قسم ترجمات تحت عنوان: «غاستون باشلار والشعراء»، وهي بقلم الشاعر لوي غيوم (Louis Guillaume). مقاربة تشكل في حقيقة الأمر، شهادة مثيرة عن حياة وشخصية باشلار، وإظهاراً لمختلف اهتماماته.

وصف غيوم باشلار بكونه "شعلة كبيرة"، أضاءت فكر زملائه وتلامذته. لقد عمل دائما على تشجيع الفنانين الشباب، وهو يضع أعمالهم نديا مع أعمال شعراء كبار.

اتجه اهتمام غيوم بالخصوص إلى "الموجهات الحلمية" التي جاء بها كتاب التحليل النفسي للنار (La psychanalyse du feu) وكذا أحلام اليقظة المرتبطة بوضعيات الإستراحة أو الإرادة، محيلا في هذا الإطار على كتابي: شاعرية المكان (La poétique de l'espace) وشعلة قنديل (La flamme d'une chandelle).

المقالة الثانية، والتي اختار لها صاحبها جون لبيس (Jean Libis) عنوان "الفيلسوف والشاعر"، تتمم بشكل جيد إشارات غيوم. لقد حاول أن يشركنا في بعض مقاطع الرسائل التي تبادلها باشلار مع غيوم، وهي بالمناسبة وثيقة ثمينة جداً، تظهر بشكل واضح كآبة باشلار طاعن في السن، وهو يسترجع مسيرته الفلسفية الطويلة.

هكذا يعترف باشلار للشاعر، بأن قراءة القصيدة وحلم اليقظة الذي توحي به، هو ما يشكل حقا أكبر مباهج حياته الروحية.

بالتأكيد، "القوة الدراماتيكية" لأفكار باشلار حول احتمال الوجود ظهرت بالفعل من خلال المضمون النوستالجي لـ: شاعرية المكان (La poétique de l'espace) وخاصة مقاطع من شعرية النار (Les fragments d'une poétique du feu)، ثم كتابات أخرى جاءت في المراحل الأخيرة لحياته، مظهرا كذلك رغبته في أن يبين لنا العلاقة

بين الأفراد والنباتات من خلال سبر ذكريات تثيرها روائح الطبيعة "ستكون منبعا لرغبات وأشواق لا نهائية".

لا يتأتى الاهتمام فقط هنا من روح الشاعر المبدعة، ولكن كذلك من روح القارئ التي تستوحي القصيدة، حتى يوقظ في نفسه ذاكراته وقواه الروحية.

المقالة الثالثة في قسم ترجمات دائما، وهي للباحث مارسيل شيتل، (M.Schaeltel) فإنها تتمم وبشكل منطقي، الشهادتين السابقتين. من خلال مقاربته: "باشلار والشعراء: حول صورتين للوي غيوم"، توخى مارسيل شتيل إذن، الحديث عن توظيف باشلار لمجموعة من صور الشعراء وخاصة تلك التي جاءت بها قصيدة غيوم.

باشلار "قناص وجامع للصور"، لكن مع ذلك يصعب الفصل في تفضيلاته الشعرية، نظرا لانتقائيته الفكرية والتي ميزت كذلك إبستمولوجيته العلمية.

الاختيار الأدبي لهذا الفيلسوف، يذهب على سبيل المثال من ريلكه (Rilke) وبودلير (Baudelaire) وبوسكو (Bosco) وبو (Poe)، وشار (Char) إلى بروتون (Breton)...، توخيا لمراكمة مجموعة من الكلمات أو جمل تتسامى بعقلانية المجازات، وتعطيه منفذا على صور شاردة وملتبسة تتأتى لروح الذات الحالمة.

أخيرا، فإن إطلالة الباحث عمور الشارني (Amor Cherni) علينا بـ: "باشلار والعرب"، قربتنا من الحضور

"المحدود لكن العميق" لكتابات باشلار في العالم العربي. يمكنني القول ودون مبالغة، أن هذه المقالة تشكل مرآة لتناول باشلار في العالم بأكمله.

انطلاقا من تحليل ثاقب جدا، سيظهر الشارني تعددية النظر إلى باشلار لصالح مؤسسات ومن خلال موضوعات مختلفة جدا. هناك على سبيل المثال، باشلار الثانويات ثم تدريس باشلار أو البحث في باشلار داخل الجامعات، وكذا باشلار الجمهور ارتباطا بتعريبه وإشعاعه خارج المدرسة. . . .

يظهر الشارني تذمره بشكل معقول تجاه "تآليف لكن دون معرفة كبيرة" وانحصار الاهتمام الذي يثيره باشلار عند الجمهور، وكذا تباعد المعايير بين أولئك الذين يقرؤون بالعربية، والذين يكونون في غالب الأحيان خاضعين لسلطة المترجمين. ثمة مفكرون آخرون -التونسيون بالخصوص- ينجزون جل أبحاثهم من أجل الميتريز والدكتوراه باللغة الأصلية لنصوص باشلار أي الفرنسية.

إلى جانب هؤلاء، توجد كذلك فئة حولت باشلار إلى مجرد أداة لاستهلاك جامعي دون إدراك فعلي وحقيقي لرسالته التحررية.

القضية الكبرى التي يطرحها الشارني، هي هذا النزوع داخل العالم العربي من أجل تأويل باشلار عوض "تركه هو نفسه يتكلم".

[III]

يبدأ قسم "المقاربات النقدية"، بقراءة الباحث سعيد بوخليط، لكتاب التحليل النفسي للنار (La psychanalyse du feu)، مظهرا لنا بأن هذا العمل يمثل رغبة باشلار ـ مسألة تم التأكيد عليها قبل ذلك في كتاب "تشكل الفكر العلمي: مساهمة في تحليل نفسي للمعرفة الموضوعية"- في تأويل وثائق ماضي العلم بمناهج يقدمها التحليل النفسي للاوعي.

لقد تكلم باشلار هنا عن العوائق التي تحدثها المعرفة الأولى أمام المعرفة العلمية، وكذا قوة حضورها في لاوعي الكائن الإنساني. هكذا تشكل النار مثلا، حالة نموذجية وجذرية عن الشيء الذي يصمد أمام كل تموضع (Objectivation) نظراً لعلاقتها الوثيقة مع مجموعة من العقد الشخصية والثقافية بل والكونية.

إن "عقلا نقديا"، يمثل إذن ضرورة ليس فقط بالنسبة لحالات كهاته يكون فيها اللاوعي أكثر قوة، وينعكس بشكل مباشر على المعرفة (كما هو الحال مثلا مع الخيمياء) ولكن كذلك بالنسبة لكل الأشياء التي يؤسسها العلم المعاصر.

العمل الثاني في هذا القسم، يتعلق بإعادة قراءة كتاب: غاستون باشلار: عقلاني رومانسي (Gaston Bachelard: un

(J.J. Wunenburger) والذي اعتبره Rationaliste romantique) في تقديمه لهذا العمل، بأنه يمثل بالتأكيد مدخلا لحياة وكذا عمل غاستون باشلار.

الفصل الأول كتبه، باسكال نوفل (P. Nouvel) تحت عنوان: "غاستون باشلار، فيلسوف فائض"، إشارة إلى اشتغال باشلار في بداية حياته بمكاتب البريد.

نلاحظ هنا، نفور باشلار من سلطة المجازات البرغسونية، مع افتتان مجموعة من معاصريه بمفاهيم مثل "معطيات الوعي" والطاقة الحيوية".

وأشار باسكال نوفل، إلى طبيعة تفاعل باشلار مع وجودية جان بول سارتر، وكذا موقفه المزدوج نسبيا حيال فينومينولوجيا موريس ميرلو-بونتي. ثم انتقل بنا، إلى مواقف بعض المفكرين المعاصرين لباشلار، والذين أثروا فيه كما هو الحال مع جان هيبوليت (J. Hypolite). أو على العكس، أثر فيهم باشلار بشكل قوي كما هو الحال مثلا مع جورج كانغليم (G. Canguilhem)، وميشيل فوكو (M. Foucault) أو لوي ألتوسير (Louis Althusser).

أحال باسكال نوفل كذلك على أعمال باشلار، خاصة تلك المتعلقة منها بالنقد الأدبي لإظهار أن مشروعه توخى الوقوف على هذه "السيادة الشعرية المستقلة، حيث الكلمات صور كذلك".

في الفصل الثاني من كتاب غاستون باشلار: عقلاني رومانسي، توخى جون ليبيس (J. Libis) بمقالته "جانوس والمالنخوليا" تحطيم الأسطورة التي تؤكد على انفصال وتباعد بين الإبستمولوجيا العلمية لباشلار وكذا نقده الأدبي. حيث استند الباحث، وضد النزوع التأويلي المألوف، على "توتر داخلي" ظل يحكم باستمرار المشروع الكلي للفيلسوف.

كما تحدث ليبيس عن الانتقائية والتفضيلات الأدبية والفلسفية لبشلار، واستحضاره بالأخص لأسماء مثل: شوبنهاور (Schopenhauer) وكانط (Kant) وهوسرل (Husserl) ونيتشه (Nietzche) ويونغ (Jung).... وقد أثروا ربما في الخاصية "المضطربة" و"الدراماتيكية" لإبستمولوجيته.

لكن ما يثيره الانتباه في هذا الفصل بشكل خاص، هو الإدراك المستخلص من أعمال باشلار حول الخيال المبدع وتحليله النفسي للإبداع الأدبي، ولما اصطلح عليه ليبيس بـ "سعادة نادرة في الكتابة"، بالخصوص تلك التي ارتبطت بكتاباته الشعرية التي تتوافق مع "حرية الخيال".

[IV]

القسم الثالث والأخير من مقاربات الباحث سعيد بوخليط

لفكر باشلار، جاء على شكل حوار أجراه معي بخصوص مستويات حضور العمل الإبستمولوجي لباشلار في أميركا الشمالية، انطلاقا من المجهود الذي أبذله حتى يشع هذا الفكر أكثر في أوربا وخاصة في النمسا وإيطاليا وكذا أميركا الجنوبية (البرازيل).

البحث في انفصال باشلار عن التقليد الوضعي، وتشابه بعض مواقفه الفكرية مع تلك التي جاء بها فلاسفته كـ: كارل بوبر (Karl Popper)، وتوماس كوهن (Thomas Kohn) وميشيل بولاني، وكذا تبنيها من قبل البنيويين الاجتماعيين، يمثل كل ذلك جزءاً مهماً من المشروع الذي أقوده.

باختصار، يمثل العمل الحالي لـ "سعيد بوخليط" محاولة تستحق التقدير لإعطاء جمهور اللغة العربية نبذة عن حياة ومشروع غاستون باشلار وتقريبنا من تأملات، يمكنها أن تثير مفكري اليوم.

* Prof. Teresa Castelao-Lawless.

Grand Valley State University

USA.

Avril 2004.

مدخـــــل

لماذا سلسلة باشلاريات؟ والمرتبطة كما يدل اسمها باسم الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار، من خلال اشتغالاته النظرية والمفهومية والتي قاربت الأدب والعلم -كحقلين متباعدين- بمنهجية واحدة تقوم بالأساس على الانفتاح والسجال، وتجاوز كل نزعة مذهبية تتوخى الحصر والإختزال. العلم يتجاوز ذاته باستمرار، كما أن الأدب يكثف دلالاته بقدر لانهائية القراءات والمقاربات. كل ذلك لأننا نحلم، ولهذا يغير العالم في كل لحظة من جلدته.

لاشك أن الإشكال، الذي يطرح في كل مقاربة لبنية مفهوم العالم المتغير، هو "الحسم" بالمعنى الإجرائي في قضية الأولية الإبستمولوجية لشيء اسمه "التفكير"، وآخر يأخذ صفة "الحلم". في أي شيء يختلف الحلم عن التفكير؟ وهل إعمال الفكر يفترض في لحظة ما، انتفاء وإلغاء للحلم؟ متى يقف الحلم، حتى يعمل الفكر على إرساء رسومه البيانية؟ وبالعكس من ذلك، إلى أي حد يمكن لهذا الحلم السريان والانسياب، دون شيء -نفترض فيه قانونا- يؤسس للأبعاد الزمانية والمكانية؟. وهل يمكن للحلم الاشتغال كفكر

مع انتفاء لكل نتيجة سلبية ومعكوسة؟ بقدر ما تتحول الأفكار إلى قوة ثورية.

أعتقد بأن تجاوز هذا التأرجح المفاهيمي، يفترض بالدرجة الأولى تجاوز البداهات والمواضعات التعريفية، وافتراض الممكنات وكذا التحققات اللغوية، التي تعطي حيزاً أولياً للمسافات غير المرسومة داخل الثقافة الاجتماعية، مسألة تقوم على خلفية معرفية أساسية، مضمونها: أن كل ما في ذاته يشغل كمجال للفراغ. هذه الكلمة لا تؤخذ هنا بالمفهوم المادي، ولكن كقيمة ميتافيزيقية تأسيسية، تجعل من ثنائيات: الوجود/العدم، الجسد/الروح، الموت/الحياة. ..، مجرد ممكنات لغوية، لا تقف على حيز لأنها تشغل على الممكن. تصير الموت حياة بخطوة واحدة، والحياة تغدو موتا عند كل سوداوية. الوجود يدركه العدم حتى قبل أن يوجد، لأن السؤال واللماذائية يلتقطان كل زمانية للتحقق. أما العدم، فإن وجوده يربط أساسا بدرجة تعديمه لذاته.

تجاوز نمطية التعريف بأفق مختلف ومتعدد، يعطي للمفهوم إمكانيات سياقية كبيرة. القدرة على الإنفلات من المرجعيات الواحدية، يضع الجسد البشري في إطار مسار وجودي، لا يقود إلى الموت في دلالته القدرية باعتبارها سلطة بيولوجية مطلقة، ولكنه يحول العالم إلى ماهية بدايات ونهايات تتبادلان المواقع.

الحلم فكر "استنفد" فتوته وجدته، والفكر حلم يستبطن

باستمرار هواجسه، ولنرجسيته فإنه يتمرأى العالم بشهية. منطق الجميلة العذراء، والتي كلما مرت الأيام كلما ازدادت سلطة جسدها. صحيح أننا نفكر لأننا نحلم، ونفكر بالحلم وفي الحلم، لكن ليست الأحلام مشروعة دائما مثلما أنه ليست كل الأفكار حالمة. أين تقف الأحلام لتبدأ الأفكار؟ ما هو المعيار الذي يمكننا من تمثل مستويات وحدود الحلم والفكر؟ هل يجوز لفكر أن يفكر، دون مثيرات الحلم؟ المعادلة المعرفية المتداولة تقول بأن كل فكر لا يحلم هو تحصيل حاصل، يأخذ في لحظة من تطوره بعدا دوغمائياً. وبالتالي فالحلم هو الترياق الأولي لكل فكر يخشى على ذاته التلاشي، أي البقاء والاستمرار. عملية لا يمكن إدراكها إلا خارج النسيج الاجتماعي والثقافة السائدة، وهي المنظومة التي تسم كل فكر يدرك ذاته خارج التاريخ المتحقق بالفكر الزائغ. الحلم هو السؤال المنفلت، والحلقة التي تشكل مدارات التأسيس. كان الحالمون دائما محط إقصاء اجتماعي، ليس لأنهم يتكلمون لغة لا يفهمها الآخرون، ولا لكونهم يبشرون بقيم مغايرة تحذف ما سبقها ـ ونحن نعلم درجة الارتباط السيكولوجي لكل مجموعة إنسانية بمنظومتها بل تعتقد في كونيتها وإطلاقيتها ـ ولكن لأن الجديد يخيف دائما، ويثير الشك والريبة. تستكين البشرية في الغالب إلى القائم وتعتبره أقصى الممكنات.

نحلم باللغة ونفكر باللغة، تبدو العلاقة بديهية، انطلاقا

من فرضية أن العالم كائن لغوي بامتياز. القيمة المضافة هنا، من خلال أفق الحلم، هي أن اللغة تحلم، ليس فقط لأنها مجموعة من العلامات التي تشغل وفق مكونات تركيبية ودلالية وتداولية بالأحرى ذاتية أكثر منها موضوعية وبالتالي تستحضر مجموعة من الإيحاءات المجازية مما يؤدي بشكل من الأشكال إلى تجاوز المنظومة الرمزية للتعاريف القائمة. ولكن بالخصوص لأن الحلم يقوم على التجاوز والكشف، وملامسة الهناك إما في الزمان أو المكان، الأداة المرنة لذلك هي اللغة. حينئذ فإن التفكير باللغة، يكثف من مدلولات العالم، خاصة على مستوى التكلم والتجادل، بينما اللغة الخطية تتوخى الاختزال والتقطير. التفكير باللغة، يعني كذلك أننا قد نفكر بنقيض ذلك أي بالصمت. وأعتقد بأن هذا الأخير يربط داخل أدبيات ثقافة الإختلاف، على الأقل في حدود المعطيات المباشرة للمفهوم، بإعطاء المحتمل أقصى انفتاحاته. صمت الذات أفق للاتحديد واللاتمركز، واستحضار للوجود بلعبته الكلاسيكية التي تبدأ بصرخة الولادة وتنتهي بعويل الموت، لكن بتحويل سياقي للحظتين. الصمت يؤسس التحققات.

لكن لماذا نبتغي بالحلم التجاوز؟ يحلم الفلاسفة بالمفهوم، ويستكين الشعراء إلى الصور الجديدة، في حين يلتجئ غيرهما إلى تكثيف لحظات السكينة واليقظة الشاردة. أي منا لا يتحمل الآخر؟ هل نحن مجرد أشباح تزعج غفوة

هذا الوجود؟ أم لأن هذا الأخير بذيء وبشع وثقيل في كل الأحيان! نحس بالتقزز ونحن نلامسه، لذلك نكسر هذا الإغتراب برحيل ومنفى داخليين يتيح لنا ذلك فرصة، أن نأخذ نفسنا بعمق. المسألة تحل ذاتها بسهولة، إذا انطلقنا من موقع معرفي، يختزل الوجود وقضية الوجود بل ومأزق الوجود في شيء واحد اسمه: الجسد المنفلت باستمرار. نحلم بمماثلته، عملية تتحقق زمانيا في لحظة حرجة جدا.

الحلم هو المغايرة، لكن بشيء لا يتحقق قدر ما يحل في ذاته. إنه ليس بوهم أو سراب. اللغة هنا، لا تكون وضعية وإيجابية، بل متى كانت كذلك؟. الحلم تعويض عن إحساس نفسي وجودي بالضجر، ورطة الوجود تربك المعادلات. المغايرة وجود ثان، في حيز رقيق جدا أو ما أشرنا إليه أعلاه باللحظة الحرجة. صحيح أننا نبدل الشيء بشيء مثله لأن الحكاية ذاتها واللعبة نفسها، لا نخرج منها إلا بالمواقف الوجودية الكبرى.

ليس الحلم شرا ميتافيزيقيا كما ظل الاعتقاد لمدة طويلة، ولأنه ليس بالهلوسة أو المرض النفسي، فإن جل اللحظات الكيفية، تكون "جنونا" للتاريخ.

أشرنا في مقدمة العمل الأول من سلسلة باشلاريات[1]

(1) سعيد بوخليط، غاستون باشلار، عقلانية حالمة. منشورات جريدة الآفاق المغربية، 2002، مراكش.

إلى وجود ثلاثة عوامل شكلت لبنة أساسية في رسم معالم هذا المشروع الفكري وأقصد بذلك:

* اشتغالنا على أطروحة جامعية، تعلق موضوعها بالمكونات المفهومية والنظرية للخطاب النقدي والأدبي عند غاستون باشلار، ارتباطا بالأبعاد الحلمية للعناصر الكوسمولوجية الأربعة: النار/ الأرض/ الهواء/ الماء.

* رغبتنا الشخصية العميقة والحالمة كذلك، في الوقوف على البنية النظرية واللغوية للنصوص التأسيسية الكبرى، التي أسست دعائم الثقافة الإنسانية خاصة في حقل الفلسفة مجال اهتمامي بالدرجة الأولى، ذلك ما اصطلحت عليه سابقا بقاعدة التخصص. مما يعطي قدرة كبيرة للباحث على استنباط المعطيات الموضوعية والذاتية والسياقية والتاريخية... للمتن المدروس. وبالأخص مع فيلسوف إنساني مثل غاستون باشلار. ولاشك أن الإصدارات السنوية لكل من:

- جمعية أصدقاء غاستون باشلار:

(Association des amis de Gaston Bachelard)

وكــــذا،

- مركز غاستون باشلار للأبحاث في المتخيل والعقلانية: (Centre Gaston Bachelard de recherches sur l'imaginaire et la rationalité)

تكشف عن فريق من الباحثين المتخصصين في فكر باشلار، يشتغلون بلا كلل من أجل مزيد من الإشعاع

لتأملات هذا الرجل الكبير في فكره وسلوكياته الشخصية وكذا مواقفه من القضايا العلمية لعصره، وما أحوجنا في زمان الجنون المعقلن والهستيريا التي تؤجج سرطانية أوثان الواحدية والدوغمائية، إلى نفس حالم يرسم للإنسانية في كل لحظة، منافذ الإنفلات الحي والمبدع. ولاشك أن ما يغيب عن الأفق الفكري لثقافتنا العربية هو انتفاء الإحساس بالجدة والفتوة، وتحولنا مع هذا الشعور إلى كائنات مترهلة وشائخة وهرمة، ثم أضحى قيمة إبستمولوجية تسود كل مؤسساتنا من الأسرة إلى المدرسة فالجامعة مرورا بالحزب والمؤسسة الثقافية. علاجية الدرس الباشلاري هنا، هي الأبعاد المعرفية التي أصبحت لشيء اسمه: الخيال. تجربة جديدة تعيد صياغة التصالح بين الفكر والحلم، وتكشف عن الحلقة التي ظلت مفقودة داخل سيرورة المعرفة الإنسانية. الكوجيتو الحالم (Le cogito rêveur) الذي وضعه باشلار في مقابل الكوجيتو المفكر الديكارتي، لا يعني بأي شكل من الأشكال، إقصاء الثاني وسلبه. ولكنه تأكيد من زاوية أخرى عن "لاتاريخية" العقل الديكارتي في لحظة ما، من اشتغال المشروع النظري الذي وضعته الميتافيزيقا الغربية لنفسها. الصدمات التي قد تؤدي إلى شلل في التفكير والقدرة على المبادرة وما ينتج عن ذلك من انهيارات وأمراض نفسية مميتة، تقتضي إعادة الرؤية في جوهر التفكير وهي المهمة التي ظل باشلار يعمل عليها لأكثر من ثلاثين سنة وبكتابات وصلت إلى حدود 22 مؤلفا

ابتداء من كتابه "دراسة في المعرفة التقريبية" (1928) إلى "شعلة قنديل" (1961)، سنة واحدة قبل رحيل فيلسوفنا إلى العالم الآخر.

* العامل الثالث، والذي شكل ـ إضافة إلى ما سبق ـ عنصراً حاسماً في بداية الاشتغال على هذه السلسة هو مراكمتنا لكم كثير من النصوص الباشلارية، سواء كتابات الفيلسوف الأصلية، أو تلك التي جاء بها الباحثون بعده، وسواء تلامس أطروحات باشلار أو التطويرات التي عرفتها. كما أن الصدور المنتظم لمجلتي: Bulletin وCahiers، ومن خلال تجميعهما لعدد من النصوص التي تعكس وجهات نظر مختلفة، نظرا لتعدد الثقافات واللغات التي ينطلق منها الباحثون. فإن ذلك ساهم بشكل كبير في اتساع حجم المتن الباشلاري، وكذلك تضاعف القارئين المحتملين له.

نسعى إذن، بهذا العمل، كحلقة ثانية في السلسلة إلى مزيد من التعريف بالملامح الكبرى للدرس الباشلاري والذي تأرجح بين قطبي العلم والأدب مؤسسا ديكارتية جديدة على مستوى تاريخ العلم، وقاطعا مع التجربة النقدية الكلاسيكية أو "النزعة العلموية" للقرن التاسع عشر فيما يخص الأدب.

* لماذا إذن هذا المؤلف؟

* ما هي الظروف الذاتية والموضوعية المتحكمة في إنتاجه؟

* ما هو المناخ المعرفي الذي شكل خلفية له؟

* ما هي طبيعة المساهمة التي يمكن أن يضيفها إلى التراكمات الثقافية العربية الأخرى؟

* هل يمكن للنص الباشلاري بخصوصياته الفلسفية والمعجمية والأسلوبية أن يأخذ مسارا لغويا آخر؟ وبالمناسبة أشير إلى أنه قد نظم ملتقى دولي حول موضوع: باشلار والكتابة، في شهر تشرين الأول/أكتوبر 2002 في مدينة ديجون (Dijon). ومن محاور هذه الندوة خصص اليوم الثالث والأخير منها إلى قضية "باشلار ومترجموه". وتدخل في هذا السياق مقاربة باشلار داخل الثقافة العربية، مقارنة مع الموقع الذي أحدثته كتابات: سارتر أو ألتوسير أو دولوز. ..

إن الرؤية المفاهيمية والإبداعية، التي يريدها باشلار تلامس بشكل أساسي البنية الأنطولوجية للإنسان الذي يتوخاه والمقصود به: الكائن الحالم بامتياز. مستندا في ذلك إلى مجموعة من الحقول المعرفية مثل: الرياضيات، والكيمياء، والخيمياء، والقصيدة، والرواية، والنحت، والفن التشكيلي، والأنثروبولوجيا، والإثنوغرافيا. ... وبفكر تميز بخصلتين بيداغوجيتين أساسيتين: السجالية والإنفتاحية، يبحث دائما عن تأويل عقلاني قابل للانفلات من ذاته، يحلم باستمرار ويؤمن بالنفي والسلب والتجاوز، لأن الاعتقاد واليقينية قتل للفكر والحياة؛ لذلك سيكتب باشلار على مستوى إبستمولوجيته التاريخية كتابا اسمه فلسفة النفي أو دراسة في المعرفة التقريبية. وفي أحاديثه عن الأدب، خصص لما يسمى

بـ (La rêverie) - وهو مختلف جذريا عند باشلار عن ـ (Le rêve) كتابا بأكملـه، تحـت عنـوان: (La poétique de la rêverie).

إجمالا، "باشلاريات" هي عبارة عن أبحاث تسعى للوقوف بتركيز وتفصيل -لا تهم مسألة الزمان- على الأسس وكذا الروافد ثم الإمتدادات المعرفية لفكر غاستون باشلار. وذلك لإيجاد المبررات الأخلاقية والفلسفية من أجل تحويل الواقع إلى علة للفعل الجمالي سواء كان فعلا معرفيا أو سياسيا أو اجتماعيا.

مراكش في: 28/ 12/ 2003.

القسم الأول

ترجمات

* غاستون باشلار والشعراء: لوي غيوم.
* الفيلسوف والشاعر: جون ليبيس.
* باشلار والشعراء: حول صورتين للوي غيوم.
مارسيل شاتل.
* باشلار عند العرب: عمور الشارني.

غاستون باشلار والشعراء[2]

غاستون باشلار، ذلك الذي يمكننا تسميته "أكثر الشعراء فلسفة، والفيلسوف الأكثر شاعرية"، ولد في -Bar-sur" "Aube عام 1884 في أسرة من الإسكافيين وزارعي الكرمة (Vignerons). في التاسعة عشرة من عمره، دخل إلى إدارة مكاتب البريد وتزوج من مدرسة ريفية، شجعته على مواصلة دراساته. عمله أثناء الليل مكنه من التعلم نهارا. عام 1919 في الخامسة والثلاثين من عمره، وبعد أن اجتاز لوحده إجازة في الرياضيات، عين أستاذا للفيزياء والكيمياء بثانوية في بلدته الأصلية. عندها هيأ شهادة التبريز في الفلسفة. ثم دكتور في الآداب وقد بلغ الثالثة والأربعين من عمره. فأصبح أستاذا للفلسفة بجامعة ديجون. سنة 1940، انتقل مدرسا إلى

---

(2) Louis Guillaume: "Gaston Bachelard et les poètes", in *Association des Amis de Gaston Bachelard*, Bulletin N° 4, 2002, p: 63-80.

وهو في الأصل برنامج إذاعي قدمه الشاعر لوي غيوم على أمواج فرنسا3، يوم 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1962، أي بعد شهر من وفاة الفيلسوف.

السوربون، ومازلت أتذكر المعارك، التي يجب تحملها من أجل الحضور إلى دروسه، نظرا إلى عدد الجماهير التي كانت تشد إليها: أدباء وعلماء وشعراء، الكل يصفق له. لم يتم قبل ذلك تحقيق تركيب ما بين العلم والشعر، حيث توخى جعلهما "متكاملان". سنة 1955، حصل على تقاعده، وانتخب عضوا بأكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية. وفي العام 1961، حصل على الجائزة الوطنية الكبرى للآداب، وبهذه المناسبة تمكنا من أن نرى على شاشة التلفاز عينيه اللتين تتوقدان نارا من الدهاء والذكاء، وكذا وجهه العجيب الذي يشع طيبة، بلحيته الطويلة البيضاء التي تشبه لحية نبي. بإمكاننا أن نسمع صوته الشامباني (Champenoise) وهو يدحرج الـ"R". بدأ الصحافيون يكتشفونه، ويقومون بتصويره وهو يتسوق في شارع "Mouffetard". يتجادل مع المتسكعين، وتجار الفصول الأربعة، وكذا "قدماء" حرب 1914. أرمل منذ مدة طويلة، يعيش بشارع "La montagne Sainte-Geneviève" في شقة صغيرة مكتظة بالكتب مع ابنته التي هي كذلك أستاذة للفلسفة. مدير في معهد التاريخ والعلوم، فقد أصدر أكثر من ثلاثين مؤلفا في قضايا الفيزياء وفلسفة العلوم، وكذا في كل مسالك الخيال الإنساني. ذلك الذي يدعوه الكل سواء الزملاء أو التلاميذ، بـ"السنديانة الشائخة" توفي عن سن 78 عاماً في 16 أكتوبر 1962. كل من عرف هذا الكائن الخارق، الأكثر إنسانية والأكثر شاعرية

من بين كل فلاسفة عصرنا الكبار، لا يمكنه نسيانه. في "مغارة كتبه"، مثل الفيلسوف رامبرانت (Rembrandt)، كما تحدث عنه بطريقة مؤثرة جدا في آخر عمل له، كان ينتظرنا. يخطو، وهو ينتعل ليفتح لنا الباب، بقميص ليلي مفككة أزراره، وغطاء قديم ممزق ملقى على منكبيه. ريشته "رقيب ماجور" مخشخشة (مما يعطي الحياة أكثر، كما يقول)، كانت موضوعة في مكتبه الذي تكتسحه الأوراق والكتب، بجانب المحبرة وقد توحل حبرها قليلا. لقد رفض دائما استعمال قلم (Stylo). وواجهت ابنته كثيرا من أجل إدخال الكهرباء إلى شقتهما. لم يقبل أبدا الانزواء في صالة سينمائية. ولم يكن هو، أستاذ الصور الشعرية الكبير، بحاجة إلى هذه التسليات الاصطناعية! جالس إلى مكتبه، يقول وهو يبتسم مثل خفاش الأسطورة: "انظروا إلى أرجلي، أنا فيلسوف للعلوم. انظروا إلى أجنحتي، فأنا شاعر".

هذه الشعلة الكبيرة التي تنقل ارتعاشتها ونورها إلى روح كل الشعراء، تنطفئ. القصيدة في حداد. ذلك الذي قال: «كل شيء يرتج حين يرتعش النور» لقد تركنا باشلار. كان منارة بالنسبة للشعراء، يلهمهم ويحسون بأنه واحد منهم. منذ كتاب التحليل النفسي للنار (La psychanalyse du feu) الذي يفتتح ويختتم على مقولة لـ بول إلوار، يمكننا القول بأن القصيدة اجتاحته شيئا فشيئا. تكلم نيرفال عن "تدفق للحلم في الحياة الواقعية"، فإننا نعاين تدفقا للقصيدة داخل روح

هذا الفيلسوف الكبير، بحيث أمكن لبعض الصحافيين أن يسميه "الأب نويل للحلم". هذا الحكيم الطيب جداً، والقارئ المدهش الذي يلتقي مع العقول الكبيرة لكل الأزمنة، يتوجه في الوقت نفسه إلى جمهور متخصص وكذا إلى هواة القصيدة العاديين. عمله منجم بعروق متعددة. الشباب يأتون عنده فطريا ويستقبلهم جميعا، ويعرف كيف يكتشف لهم في كتبهم الأول القصيدة المقبولة والمقطع الشعري الجيد وكذا الصورة الشخصية التي كانت نواة لعملهم المستقبلي. نقاد الشعر، وهم الأصل الذي أخذ منه الفيلسوف القصيدة، يسخرون أحيانا. بهدوء يفاجؤون حينما يجدون غاستون باشلار وقد استشهد إلى جانب شعراء مشهورين، بآخرين مبتدئين لم يعرفوا كيف يثيرون انتباههم.

هذا الشمباني، يستطيع من جهة أخرى، أن يعكس على ذاته طيبوبته المتهكمة. غالبا فإن الفيلسوف يسخر برقة من الحالم، والأستاذ يبدي رأيه في العاشق المتلهف للصور الشعرية، أما العالم فإنه يتظاهر بالغضب ضد صاحب هذه الجملة، والتي لا يتنكر لها أي شاعر، كما نحب وضعها عند كل بدايات القصيدة المعاصرة: "الحلم أكثر قوة من التجربة".

بينه وبين الشعراء، كانت هناك إذن، علاقة مستمرة، تيار مستمر. لكن كم يعطي أكثر مما يأخذ. لقد كان حقا "موصولا" بالقصيدة والشعراء، يحبهما مثل أجمل شجرة في

غابتهما. إذا كان باشلار يدين كثيرا للشعراء ـ ويسره أن يردد ذلك كثيراً سواء في كتبه أو رسائله ـ فإن الشعراء سيكونون دائما مدينين له، لأنه يلزمهم بأن يعيدوا قراءة ما كتبوه وبأن يفهموا جيدا صورهم والتي وضعها تحت إضاءة جديدة.

لكن كيف يمكن لمؤلف خمسة عشر كتابا تحمل عناوين مثل:

- L'activité rationaliste de la physique contemporaine.
- La propagation thermique dans les solides.
- Le pluralisme cohérent de la chimie moderne.

أن يصبح أفضل منبع شعري لحقبته؟

في العام 1937، ظهر "التحليل النفسي للنار"، ليست النار "كموضوع علمي" هي التي درست، ولكن الإنسان أمام النار. الإنسان المتأمل أمام موقده حينما "تلمع النار مثل وعي منعزل". فإن باشلار يعرف بأن التجارب الباطنية تتناقض حتما مع التجربة الموضوعية.

"في هذا الكتاب يقول: نصنع أسرارا ونحصي أخطاء. هكذا فإن بيداغوجيا الفكر العلمي ستستفيد بإظهار الإغواءات التي تعمل على تضليل الاستقراءات. ولن يكون مستعصيا أن نعمل ثانية مع الماء والهواء والأرض والملح والخمر والدم ما خططنا له هنا في النار".

نرى منذ الآن، ظهور مخطط العمل المستقبلي للفينومينولوجي. لقد تم رسم الطريق الذي سيلتزم به. لكن هل يتوقع هذا السيل من الصور الشعرية التي ستستهويه؟

فلأن التحليل النفسي يجعله ينقاد وراء حلم يقظته الخاص، يتذكر وهو يتكلم عن النار كعلاج نافذ بامتياز: "الطبيب الحسن والضخم بساعة ذهبية، أتى إلى وسادة الطفل وهدأ بكلمة بارعة أمه القلقة. كان صباح شتاء في بيتنا الفقير، والنار تلمع في موقدها. قدموا لي شراب الطولو (tolu)، ولعقت الملعقة. أين هي أزمنة الدفء البلسمي تلك، وكذا علاجات النكهات الدافئة"؟.

وهو يتكلم عن حلم اليقظة بجانب النار، فإنه أيضا إلى طفولته يلجأ:

«على أسنان معلاق القدر، يتدلى قدر أسود. وداخل الرماد الساخن يظهر قدر بثلاثة أرجل. جدتي تنفخ بخدود ضخمة في الأنبوب الفولاذي، فتوقد ثانية الشعلة الراقدة. كل شيء يطهى في الآن نفسه: البطاطس للخنازير، ثم البطاطس الرفيعة أكثر للأسرة. بالنسبة لي، بيضة طرية تطهى تحت الرماد، ولا تقاس النار بالساعة الرملية: حينما تتبخر قطرة ماء وفي الغالب قطرة لعاب فوق القشرة، فإن البيضة قد استوت. فوجئت كثيرا حينما قرأت مؤخرا بأن "Denis Papin" يراقب قدره باستعمال أسلوب جدتي. قبل البيضة، يحكم علي بالثريد (Panade). في اليوم الذي أكون فيه طفلا غاضبا ومضغوطا علي ألقي بملعقة ممتلئة بحسائي على أسنان القدر: «تناول الكراميل! تناول الكراميل!». وعندما أكون ظريفاً، يحملون إلي قالب المزبدات (Le gaufrier). يسحق بمثلثه نار

الأشواك، حمراء مثل سهم دلبوث (Glaïeuls). وقبل ذلك، فإن قرص عسل كان في وزرتي يحرق الأصابع أكثر من الشفاه. نعم إذن، أتناول النار وأتناول ذهبها، ورائحتها إلى غاية توقدها بينما قرص العسل الحارق يطقطق تحت أسناني. وهكذا دائما، بنوع من لذة الترف، مثل التحلية (Dessert)، تؤكد النار إنسانيتها. لا تقتصر فقط على الطهي، بل تقضم، وتذهب البسكويتة (La galette)، إنها تجسد احتفالات الناس. إلى أقصى علو يمكننا الصعود إليه، فإن القيمة التذوقية تسبق القيمة الغذائية. ومن خلال السعادة وليس الحزن، يجد الإنسان عقله. استمالة الفائض تعطي إثارة روحية أكبر من الأخذ بالضروري، فالإنسان خلق للرغبة وليس للحاجة».

لقد رأينا بأن الفيلسوف ينساب من حلم اليقظة إلى التفكير. ذكريات كتلك، ومثل هذه المنعطفات نحو الطفولة، تمتزجان في كل المؤلفات المتعلقة بالعنصر والتي تهمنا: في "التحليل النفسي للنار"، انحصر إذن، باشلار عند استكشاف طبقة نفسية، ربما أقل عمقا لكنها أكثر تعقلنا من تلك التي للحلم، إنها طبقة حلم اليقظة (La rêverie). «يسير الحلم خطيا، ناسيا طريقه وهو ينساب. يشتغل حلم اليقظة كنجم». وسيعود كثيرا إلى هذا التمييز. تهمه الصور الطوعية حتى ولو كانت مغالية، وكذلك حلم اليقظة الذي يبحث عنه وهو ينظر إلى الشعلة. سيجده أكثر فأكثر في الصور التي يلتقطها من المجموعات الشعرية وكذا المؤلفات النثرية. إنهم في الموعد:

إلوار/ جورج ساند/ هولدرلين/ دانونزيو/ نوفاليس/ توليت/ هوفمان/ جون بول/ فيلوتي أو نيدي/ وحتى زولا. إلى جانب خيميائيين ومؤلفين قدماء من القرنين السابع عشر والثامن عشر. لأن التحليل النفسي للنار، مازال كتابا علميا. في المقابل فإن الكتب اللاحقة ستأخذ شيئا فشيئا مظهر مؤلفات شاعر.

وفي الماء والأحلام الذي صدر سنة 1940، ستظهر لأول مرة قاعدة العناصر الأربعة المشهورة والتي لن تقدم فقط لغاستون باشلار خط التوجيه في المتاهة الشعرية، بل ستغير بعمق سلوك مجموعة من الشعراء المعاصرين. «فقط إذا أمكننا دراسة الصور وذلك بإسنادها إلى مادتها الحقيقية، يمكننا تأمل نظرية كاملة للخيال الإنساني، يؤكد باشلار. الصورة نبات يحتاج للأرض والسماء، وكذا للجوهر والشكل. ... نعتقد بأن نظرية للخيال عليها ـ قبل كل شيء ـ دراسة روابط العلة المادية بالعلة الشكلية. هذه المسألة تطرح عند الشاعر وكذا عند النحات...».

«نعتقد بإمكانية تحديد قاعدة للعناصر الأربعة داخل نظام الخيال، والتي تصنف الخيالات المادية الأربعة حسب ارتباطها بالهواء أو النار أو الماء أو الأرض. وإذا كان صحيحا كما نطمح، أن على كل شاعرية الحصول على مكونات الجوهر المادي، فأيضا على هذا التصنيف بواسطة عناصر مادية جوهرية، التحالف بقوة أكبر مع الأنفس

الشعرية. ولكي يتواصل حلم يقظة بثبات أكثر حتى يعطي عملا مكتوبا، وحتى لا يكون مجرد استراحة ساعة عابرة، فإنه من الضروري أن يجد مادته، وأن يعطيه عنصر مادي جوهره الخاص وكذا شاعريته النوعية. وليس من أجل لاشيء، جعل الفلاسفة الأولون من هذا المسار اختيارا قطعيا. لقد ربطوا مبادئهم الشكلية بأحد العناصر الأربعة الأساسية، والتي أصبحت سمات للأمزجة الفلسفية. .. قس على ذلك: داخل النظام الفلسفي، لا نقتنع جيدا إلا حينما يستلهم أحلام يقظة جوهرية ويعيد للأفكار سبيلها إلى الأحلام».

نص أساسي يفتح للشعراء طريق المادة ومسار الحلم للعقلانيين، لينتهي بصورة رائعة عن الشاعر. هذا ما أنجزه غاستون باشلار، ولذلك فإننا نعترف له بالجميل. لقد أعاد للأفكار مسلكها للأحلام.

أدرك الشعراء، بأن صورة لكي تستمر عليها التجذر في المادة. وبأن مهمتهم الأولى هي: «أن يرفعوا داخلنا مرساة هذه المادة التي تبتغي الحلم».

يظهر الشاعر/الفيلسوف فصيحا لكي يتكلم عن الماء بعد النار. ليس الماء، يقول: بزينة للمنظر الطبيعي، لا تتسلوا بلعبه السطحية، ولكن ادخلوا إلى عمقه. ستكتشفون حينئذ بأن «الماء نموذج للحميمية، وصورة لقدر جوهري يحول بلا توقف جوهر الكائن: إننا لا نسبح مرتين في النهر نفسه، لأنه

قبل ذلك فإن الكائن الإنساني في عمقه له قدر الماء الذي ينساب. ..، الكائن المنقطع للماء يصاب بالدوار، يموت عند كل دقيقة بلا توقف، شيء من جوهره ينساب. الموت اليومي ليس موت النار الغزير والذي يخترق السماء بسهامه: الموت اليومي هو موت الماء. .. حزن الماء لا ينتهي».

لماذا يستعير باشلار أغلب أمثلته من القصيدة؟. يجيب، لأن الأساطير انقرضت في زماننا، فإن «الخيال لا يستضيء إلا بالقصائد التي يوحي بها. دوره هو تشكيل الصور التي تتجاوز الواقع، الذي تمتدحه. يبدع الحياة والفكر الجديدين. وستكون له تجليات إذا نما بأحلام يقظة قبل أن يتهذب بالتجارب. ... هذا الانخراط في اللامرئي يشكل القصيدة الأولى، القصيدة التي تمكننا من أن نحب قدرنا الباطن. تعطينا انطباعا بالشباب والفتوة. وذلك بأن نعيد إليها بلا توقف ملكة أن إدهاشنا. القصيدة الحقيقية وظيفة للإثارة. .. العالم لا يوجد شعريا إلا إذا لم يتم التوقف عن اكتشافه من جديد».

رائع هو كتاب الماء والأحلام: كلوديل/إدغاربو/لافورك/ لامارتين/ شيلي/ مالارميه/ سوينبرن/ شكسبير/ هوغو. ومئات من الشعراء الآخرين كانوا على موعد مع الماء. ثم نجدهم مرة أخرى في "الهواء والأحلام" (1942) إلى جانب: وليام بلاك/ دانتي/ بودلير/ موريس دوغيران/ فاليري/

ريلكه/ نيتشه/ غوته، مع آخرين صحبة كتاب النثر: بلزاك/ جاكوب بوهم/ ديكارت/ نوديي/ وشوبنهاور.

بالخيال ننطلق تجاه حياة جديدة، يؤكد ثانية. في حين أن الحالم يسير على غير هدى، فإن دور الشاعر الجيد هو أن يجعل من هذا الخيال سفرا. القصيدة الجميلة بمثابة أفيون أو نبيذ، دعوة إلى السفر. وهذا السفر المتخيل يأخذ نقطة انطلاقه من خلال هذا "المرشد الجيد للنفسية المتخيلة": الشيء.

«كل شيء متأمل، وكل اسم كبير يتم همسه هو بداية حلم وكذا مقطع شعري، إنه حركة لسانية مبدعة. كم من مرة، عند حافة الآبار على الصخرة القديمة المغطاة بالحماض البري والسرخس، همست باسم المياه البعيدة، إسم العالم المتواري. وكم من مرة أجابني العالم بغتة. .. آه أشيائي، كم تكلمنا!».

وفي كتاب حديث أكثر، سيسترجع هذا الثناء:

«وردة، فاكهة شيء بسيط ومألوف، يسترعون انتباهنا بغتة لكي نفكر فيهم وأن نحلم بهم، بالقرب منهم. وأن نساعدهم على الارتقاء إلى درجة رفيق للإنسان. ما إن يختار الشاعر شيئه، حتى يغير هذا الشيء من وجوده، لقد ارتقى إلى الشعري. أية سعادة إذن، في أن نأخذ الشاعر بالكلمة، وأن نحلم معه ونعتقد فيما يقوله، ونعيش في العالم الذي يقدمه

لنا. وذلك بوضع العالم تحت تأثير الشيء، وفاكهة للعالم ثم وردة للعالم».

هكذا فإن عالم نفس "حلم اليقظة" يتعارض مع "علماء النفس، الذي لا يحلمون أبدا". «كيف يمكنهم تأكيد حقائق سيكولوجية للحياة المتخيلة؟ يتساءل. إنهم يخافون من دراسة الحماقات ويتوخون معرفة كيفية تشكيل الصور! يريدون دراسة الواقعية ولا يبالون بالصور الحية التي تفرض الليل على أعيننا المغلقة. .. وعلى القصيدة العثور عليها ثانية باعتبارها ذكريات عن العالم الآخر».

من هو إذن، الفيلسوف الأخر الذي كان محاميا للشعراء؟ حيث يعرف كيف يوجههم ويفكك أجهزتهم وأحيانا إبطال مهاراتهم! مثلما كتب ماكس جاكوب إلى شاعر شاب: "لا تقل كسوة خضراء، قل كسوة عشب". يفسر: «إذا لم تكن السماء الزرقاء بالنسبة للكاتب مجرد موضوع. وكانت موضوعا شعريا فإنها لا يمكن أن تنتعش إلا داخل مجاز. ليس على الشاعر أن يترجم لنا لونا، ولكن أن يجعلنا نحلم بهذا اللون».

فيما يتعلق بالشجرة والريح، كم هي المقاطع الجميلة التي أتت تحت ريشة ذلك الذي حلم فوق الأرض، داخل مفرع جوزة والذي أعلن بأن "الإنسان مثل الشجرة، حيث تأتي قوى مضطربة لتنتصب".

أن تنشد القصيدة أو تقرأ في صمت، فإنها توجد دائما

في تبعية للنفس (Souffle). الإنسان "أنبوب رنان وقصب متكلم". «يحتاج لأن يقول لذاته في صمت وجوده ما يريد أن يصيره، وأن يؤكد ويمتدح صيرورته الخاصة. هنا وظيفة القصيدة الإرادية، والتي يجب أن توضع في علاقة مع صلابة وشجاعة الإنسان الصامت». وها هي الفقرة المناسبة حسب صديقه الكبير "ماكس بيكار"، والمؤيدة لهذه القراءة المنعزلة. هكذا يكتب: «هناك شعراء صامتون، مسكتون (Silenciaires). شعراء يعملون أولاً، على إسكات عالم جد صاخب وكذا كل الإنقصافات الراعدة. يسمعون هم كذلك ما يكتبونه في الوقت ذاته الذي يكتبون فيه. .. في حين أن آخرين "يعزفون" ما أبدعوه في نفس الصفحة البيضاء. البعض الآخر "ينشدون" في البوق إلقاءات الأبهة. إنهم يتذوقون إيقاع الصفحة الأدبية حيث الفكر يتكلم، وحيث الكلام يفكر. يعرفون قبل التفعيل وقبل الإصغاء، بأن الإيقاع المكتوب أكيد، وبأن الريشة ستتوقف من تلقاء ذاتها أمام تعاقب صائتين (Hiatus)، وسترفض التجانسات الصوتية غير المفيدة. وهي تتوخى بامتياز تكرار الأصوات أكثر من الأفكار. كم هو عذب إذن، أن تكتب وأنت تزعزع أعماق الأفكار المتأملة!. وكم نحس بأننا قد تخلصنا من أزمنة سخيفة، متقلبة ومبرودة (Salpêtrés!) من خلال بطء القصيدة المكتوبة، تجد الأفعال تفاصيل حركيتها الأصلية. يعود لكل فعل، ليس فقط زمن تعبيره، ولكن الوقت المضبوط لحركته. وحين تأتي صفة

لتزهر جوهرها، فإن القصيدة المكتوبة والصورة الأدبية، تجعلاننا نعيش بتمهل زمن الإزهرارات. فالقصيدة هي حقا الظاهرة الأولى للصمت المنتبه. كم هو فقير الزمن الحي، لقاء الأوقات التي تبدع داخل القصائد!».

سنة 1945 ظهر العملان المكرسان لتأملات الاستراحة وكذا الإرادة، والتي يوحي بهما عنصر الأرض. وكم سيتواضع الكاتب وهو يواصل اصطياده للصور المتخيلة! إنه لا يطمح إلا لكفاءة واحدة هي القراءة: «إنني لست إلا قارئا ومحبا للقراءة. نقضي الساعات والأيام في القراءة. قراءة متمهلة للكتب سطرا بسطر (يشدد على هذه الكلمات الثلاث)، ونقاوم بشكل أفضل جاذبية التواريخ. .. حتى نكون على يقين مطلق بأننا نقيم في الصور الجديدة التي تجدد الأنماط الأصلية اللاواعية». إنه يكتشف دائماً في عمل الشعراء خاصة "تفجيراته للغة": «تعمل القصيدة على تفريغ دلالة كلمة وذلك بإحاطتها بمناخ من الصور. . . . بين كلمتين تنتظمان تقوم حتمية ما للمجاز. ... في قصيدة أكثر حرية كما هو الحال مع السوريالية، فإن اللغة تكون في منتهى تشعبها. عندئذ فإن القصيدة كتلة من الصور».

متوخيا بأن يعطي نصيبا أكبر لصور العمل، لأحلام اليقظة المرتبطة بالإرادة الإنسانية، ثم للحلمية التي تصاحب الأعمال المادية، فإنه يحدد الأشياء أيضا كبذور للقصائد، والمادة كخصوصية لمقدرة العامل: «هكذا فإن العامل

المتحمس والغني بكل قيم الحلم الدينامية، يعيش الزمان الدينامي للطهي. ينجز طوعا، وبنشاط مصير العجين. يجده لينا وبلاستيكيا، ويريده صلبا ومستقيما. ..، إنه ترابط للحلم والقدرة، والتقاء للأشكال الطبيعية، ما ولد في الماء يكتمل في النار. تتعاون الأرض والماء والنار قصد إعطاء شيء مألوف. بالمقابل فإن أحلاما كبيرة بالعناصر (Elémentaires) تتوحد داخل نفس بسيطة وتعطيها كبرياء خالقا.

انزعوا الأحلام، ترهقون العامل. تغاضوا عن القوى الحلمية للعمل، فإنكم ستقزمون العامل وتدمرونه. لكل عمل حلميته (Onirisme)، وكل مادة تشتغل، تحمل أحلام يقظتها الباطنية. إن احترام القوى السيكولوجية العميقة، عليه أن يقودنا إلى أن نحافظ لكل تحقق عن حلمية العمل. إننا لا نقوم بالجيد قسرا، أي ضد الحلم. حلمية العمل، هو الشرط ذاته من أجل الكمال الذهني للعامل.

آه! سيأتي زمان، يكون فيه لكل مهنة حالمها المنجذب ومرشدها الحلمي. وحيث سيكون لكل مصنع مكتبه الشعري. الإرادة عمياء، وقصير نظره، ذلك الذي لا يعرف كيف يحلم. دون أحلام اليقظة الإرادية، فإن هذه الإرادة ليست حقا قوة إنسانية، بل هي شراسة».

مرشد حلمي. أليس هذا الفيلسوف المدمن على المباهج الدينامية للصورة هو المرشد الحلمي للشعراء المعاصرين؟ هذا ما سعت إلى تأكيده كتبه الأخيرة أكثر فأكثر. سلسلته التي

أنهاها حول العناصر، يريد أن ينجز بها فينومينولوجيا للخيال وللشعري، يقول: «إذا كانت هناك من مهنة للشاعر، فهي الوظيفة الثانوية والتي تقوم على جمع الصور. لكن حياة الصورة بأكملها وفي وميضها، بحيث أن كل صورة هي تجاوز لكل معطيات الحساسية». ثم يواصل وعظه للشعراء، بأن لا يصفوا ولكن أن يوحوا: «يجب حمل القارئ إلى وضعية القراءة المؤجلة. بشكل مفارق، فإن أعينه حينما تترك الكتاب، عليها أن تشارك الشاعر حقا».

في غالب الأحيان، فإن فيلسوفنا الشاعر يعتذر لكونه لم يراقب كفاية حلم يقظته وكذا تأمل الآخرين: «لاشك أنه من التهور بالنسبة لكاتب، العمل على مراكمة الأفكار الأقل ترابطا، والصور التي لا تعيش إلا في التفاصيل. ثم الاعتقادات الصادقة جدا، إلا أنها مع ذلك لا تستمر إلا لحظة».

يتكهن بالانتقادات، فإنه يدافع عن نفسه ضد "الفيلسوف الحكيم"، صنفه ليس نادرا يضيف بتهكم. ويؤاخذ عليه بأن وثائقه مبالغ فيها وبأنها الشعوذة الأدبية. يقول: «نأخذ الوثائق الأدبية كحقائق للخيال، وكأكثر إنتاجاته نقاوة. لماذا لا تكون أفعال الخيال كذلك واقعية مثل تلك التي للإدراك؟. ويختتم شاعرية المكان (La Poétique de l'espace) صاحيا: «آه! كم يتثقف الفلاسفة إذا هم قبلوا بقراءة الشعراء». نفس التقدير أعيد للشعراء في شاعرية حلم اليقظة (La

وذلك حينما تساءل: «بدون مساعدة (poétique de la rêverie) الشعراء، ماذا يمكن لفيلسوف محمل بالسنين فعله وهو يصر على التكلم عن الخيال؟ ليس له شخص لاختباره. إنه يتوه بسرعة في متاهة الاختبارات والاختبارات المضادة. الشعراء يتخيلون بسرعة أكبر من الذين ينظرون إليهم حينما يقومون بذلك».

ها نحن أتينا إلى الكتاب الأخير لغاستون باشلار، الأكثر ارتجاجا وتأثيرا وكذا الأكثر جلاء من بين رسائله .التحليل النفسي للنار لم يشف غليله وحلم بأن يكتب ثانية هذا الكتاب ويجعل منه شاعرية كبيرة للنار[3]. حيث لا تشكل فيه شعلة قنديل (La flamme d'une chandelle) إلا فصلا. لقد تجرد تقريبا هنا من كل الجهاز الفلسفي. إنه ليس إلا إنسانا، طيبا وبسيطا جدا، قريبا من الآخرين، وفريسة للقصيدة. ذلك الذي نجده حينما نذهب لرؤيته. يحتفظ بثقابة فكره الرائعة لكنه يصمد أقل فأقل أمام الذكريات، ورغبته في الكشف عن أصدقائه الذين يعشقهم أكثر، ويظهر أحيانا بطريقة مثيرة انفعاله وسوداويته لـ "فيلسوف تائه في الأحلام".

«من الضروري أن أكتب أيضا كتابين، يؤكد في "شاعرية

(3) في كانون الثاني/يناير 1988، صدر عن المطابع الجامعية الفرنسية: "Fragments d'une poétique du feu"، تحت إشراف سوزان باشلار.

حلم اليقظة*: كتاب في العقلانية التطبيقية، والآخر حول الخيال النشيط. الوعي الجيد بالنسبة إلي، هو وعي منشغل ـ ليس بفارغ ـ لا تكفيه الأعمال مهما كانت، إنه وعي إنسان يشتغل إلى الرمق الأخير منه».

إلى آخر نفس، كان باشلار إلى جانب شعراء عصره ودائما في الطليعة: «بالنسبة إلي، كل شيء يوجد في تواصل مع الصور التي يقدمها إلي الشعراء، وفي اتحاد مع عزلة الآخرين، أقوم وحيدا مع عزلة الآخرين. أدرس، فأنا لست إلا ذاتا لفعل درس. أفكر، لا أتجرأ. البحث قبل التفكير، وحدهم الفلاسفة يفكرون قبل أن يدرسوا. لكن الشمعة ستنطفئ قبل فهم الكتاب الصعب. لا يجب أن نضيع أي وقت من نور الشمعة، والساعات الكبيرة من الحياة المجتهدة. إذا رفعت الأعين عن الكتاب لكي أرى الشمعة فإنني أحلم، عوض أن أدرس. تتموج إذن، الساعات في العزلة الساهرة. صورة ساهر عند الشمعة، تكفيني لكي أبدأ هذه الحركة المتوجة للأفكار وأحلام اليقظة... آه! يكفيني ماضي الخاص لكي يرهقني، لست بحاجة إلى ماضي الآخرين. ولكنني بحاجة إلى صورهم حتى أميز ثانية صوري. وأحتاج إلى تأملاتهم لكي أتذكر عملي تحت الأضواء الصغيرة، وأتذكر بأنني كنت كذلك حالم شمعة. ألا يمكننا أبدا خلق القصيدة بالفكر؟».

يعرف باشلار جيدا، أنه بعد بودلير، لا.

«مع شعراء زماننا، يقول في كتابه الأخير، فإننا دخلنا إلى مملكة القصيدة المباغتة. قصيدة لا تثرثر أبدا ولكنها تتوخى دائما أن تعيش الأقوال الأولى. يجب أن ننصت إلى القصائد مثل كلمات تسمع لأول مرة. . .».

«أي أستاذ سيئ للأدب كنا! يتعجب إذن. إننا نحلم كثيرا ونحن نقرأ. نتذكر بإفراط كذلك. عند كل قراءة، نصادف حوادث حلم يقظة شخصي، آثار ذكرى. تتوقف قراءتي مع كلمة أو حركة. ألا يطلق راو بوسكو (Bosco) رياحه المعاكسة لكي يخفي نوره، أتذكر الليالي التي قمت فيها بنفس العمل، في المنزل القديم. كان نجار القرية، قد قطع صميم الجناحين إلى قلبين وذلك حتى توقظ في كل الأحوال شمس الصباح أهل البيت. حينئذ، فإن الأمسية تتأخر في الليل، من فجوتي الجناحين فإن المصباح أو مصباحنا يلقي بقلبين من ضوء الذهب على القرية الهادئة».

غاستون باشلار، أستاذ سيئ للأدب؟ لا نعتقد ذلك! لكننا رأينا كيف كان أستاذا استثنائيا للقصيدة. مثلما يتقن الفحص الدقيق للمقاطع الشعرية الخشنة للسكوني "لوكونت دوليزل" ويضعها بموازاة مع تلك الدينامية والرشيقة لـ "لوترىامون"! فإنه يسخر كذلك بهدوء من السيد "هيبوليت تين" لأنه لم يفهم شيئا من "Séraphita" و!"Luis Lambert". وكما أن حالم الكلمات هذا، يندهل حينما يقع على: "Dictionnaire des Onomatopées" لـ Nodier، فإنه ينصت

جيدا للمقاطع الثلاثة لفعل ومض (Clignoter)، وهي تصطدم وتتحطم، الواحدة ضد الأخرى في شعلة قنديل!.

«أعيش داخل فوضى كبيرة للكتب. إشارات كتبها إلي قبل وفاته بقليل. العثور ثانية على كتاب في رفوفي أصبح مشكلة، لدي خزانة كبيرة في ديجون (Dijon). لكن هنا أعيش في حجرة منفردة: 4 م على 4 م، ذاكرتي تعبت. ومشاريعي تتشابك، أفتقد الوقت غالبا. كم هي القصائد التي أتوخى قراءتها ثانية! وبحزن كبير، أعثر كل يوم على إشارة غير مستعملة، كان من الممكن أن تدعم براهين كتابي. أترون كم أنا بحاجة إلى إيحاءات وكذا مساعدة الشعراء».

أمام الصفحة البيضاء وبجانب الشعلة المجدة، يؤكد مثل كل مبدع، قلق مالارميه (Mallarmé) أمام "فراغ الصفحة الذي يدافع عنه البياض". ويتأمل للمرة الأخيرة مثل الفيلسوف رامبرانت، تحت لولبية الدرج في الفضاء/الدامس لغرفته: «تتضاعف العزلة كثيرا، على الطاولة المضاءة بمصباح، تنتشر عزلة الصفحة البيضاء. الصفحة البيضاء! هذه الصحراء الكبيرة التي يجب عبورها، والتي لم يتم أبدا اجتيازها. أليست هذه الصفحة البيضاء والتي تبقى بيضاء عند كل سهرة، علامة كبيرة عن عزلة تتكرر بلا نهاية؟ وما هي العزلة التي ستصمد ضد المنعزل، حينما تكون لمشتغل لا يريد فقط التعلم أو التفكير ولكن يبتغي الكتابة. الصفحة البيضاء إذن عدم، عدم مؤلم، عدم الكتابة. كم من المرات

الحية في إحدى "رسوماتي" اعتقدت بأنني عمقت عزلتي، ثم نزلت درج الوجود بشكل لولبي. لكن أظن الآن، أنه في مثل هذه الانحدارات، فإنني أحلم وإن كنت قد اعتقدت بأنني أفكر. يجب أن أظهر النحات ثانية، وأن أعيد عند كل سهرة رسم الكائن المنعزل ذاته في عزلة مصباحه، باختصار كل شيء يدرك ويفكر فيه ثم يقال ويكتب في الوجود الأول. إجمالا، بعد النظر في تجارب الحياة وهي تجارب مقطعة ومقطعة؛ فإنه أمام صفحتي البيضاء الموضوعة على الطاولة وبمسافة مضبوطة من مصباحي، أكون بالأحرى حقا عند طاولة وجودي.

كل شيء حولي في راحة وهدوء؛ وجودي الوحيد الذي يبحث عن الوجود يمتد إلى رغبة مستبعدة الوقوع وذلك بأن يكون كائنا آخر، أكثر من كائن. وهكذا بلاشيء وبأحلام يقظة نعتقد بأنه يمكننا إنجاز كتب. لكن حين ينتهي الألبوم الصغير للأضواء الخافتة لنفسية الحالم، تعود ساعة الحنين إلى الأفكار المنظمة بصرامة. لم أقل تبعا لرومانسيتي مع الشمعة إلا نصف شيء أمام طاولة الوجود. وبعد كثير من أحلام اليقظة، تأخذني العجلة لكي أتكلم أكثر، وبالتالي استبعاد الورقة البيضاء من أجل أن أدرس في كتاب. لكن هل مازال لدي الوقت، لكي أعثر ثانية على العامل الذي أعرفه جيدا وأن أدخله إلى رسمي؟».

لا نريد أن نتهم بكوننا نتوخى تخصيص باشلار بالقصيدة.

لا نجهل أبدا امتداد وتنوع أبحاثه، وكم هيمن على حقبته باستعمال تركيب واسع هو في الآن ذاته صعب ومألوف، واقعي وحالم.

مع غاستون باشلار، حازت القصيدة على المجد، لأنه يعتقد بالدور الأساسي للشاعر في العالم المعاصر. كان بإمكاننا إقامة الدليل على أنه لم يكن فقط وفي الغالب جدا، صديقا حميما للشعراء، ولكنه هو نفسه شاعر كبير.

الفيلسوف والشاعر[1]

نمارس في الغالب تأويلا خاطئا، حينما نعتقد بأن رسائل باشلار إلى "لوي غيوم" تقوم على منطق حكائي وشخصي جدا. فهي لا تتضمن فقط أسرارا مثيرة عن الحالة الفكرية للفيلسوف، لكنها تظهر أيضا الإشارات، وكذا الأشياء المتواترة التي تمكن بشكل أفضل من الإحاطة بالتطورات والانعطافات، بل ربما كذلك الشكوك التي برزت في فترته المبدعة الأخيرة[2].

يمكننا بالتأكيد البحث باستمرار في القضية النظرية، المتعلقة بالروابط بين العمل الفلسفي وكذا الإنتاج الرسائلي

---

(1) Jean Libis: "le philosophe et le poéte", in *bulletin de l'association des amis de Gaston Bachelard*, N° 5, 2003 p. 46-56.

(2) تندرج هذه الرسائل في حقبة تمتد من 21 تشرين الأول/أكتوبر 1951 إلى 30 حزيران/يونيو 1962. وأقصد بـ"الفترة المبدعة الأخيرة"، تلك التي تلت إصدار: Le matérialisme rationnel عام 1953، وافتتحها كتاب "La poétique de l'espace" سنة 1957، حيث سيعلن باشلار من خلاله، رسميا عن بداية تحوله الذاتي اتجاه "الظاهراتية".

لمؤلفه. وقد أكدت السيدة "سوزان باشلار" دائما، بأن والدها لم يكن قط موافقا على نشر وثائق تستند بشكل من الأشكال إلى حقل فن التراسل. لم تفت ذوو النزعة الصفائية، الإشارة إلى أن الإنتاج الفلسفي لكاتب، يوجد كليا في العمل الذي تم إصداره فعليا؛ أما تبادل الرسائل فإنه يقوم على مثيرات هي في الآن ذاته ظرفية وذاتية أكثر؛ وتتكيف حتما مع شخصية المرسل إليهم من خلال اصطلاحات معينة وكذا صيغ اللياقة. بالفعل، نعرف انطلاقا من شهادات متقاربة، أن باشلار اهتم بالإجابة على أولئك -وهم كثيرون!- الذين بعثوا له بأعمالهم الشعرية.

مع أننا، لا نستصغر حضور هذه العوامل الظرفية في رسائل الفيلسوف، يجب مع ذلك التأكيد على أن مجموع الرسائل التي وجهها إلى "لوي غيوم" تمثل قيمة مثيرة. ليس فقط لأن لوي غيوم هو بامتياز شاعر الريح، والشجر والعزلة المعدنية، ولكن كذلك لأن باشلار ضمن هذه الرسائل مجموعة من الخلاصات أحيانا سريعة، وذلك لتعزيز ما سبق أن كشف عنه بطريقة غامضة وغير مباشرة في موضع ما من مؤلفاته الصادرة. بهذا المعنى، يتبين بشكل لا يقبل النزاع، أن عمل الفيلسوف حافظ على علاقة مع المالنخوليا[3]،

(3) أحيل في هذا الإطار على عملي المعنون بـ:

«Bachelard et la mélancolie. L'ombre de schopenhauer dans la philosophie de Gaston Bachelard». Presses universitaires de septentrion, coll. Thèses à la carte, lille 2000.

شريطة إفراغ المفهوم من كل تضمين سيكو-مرضي وإعطائه كليا بعده الموضوعي والميتافيزيقي: أي الوعي المستتر والمستمر باحتمال جذري، يتمظهر وجوديا على مستويات متعددة ومتقاطعة يشكل الموت نقطة تمفصلها الباطنية.

لا يتوقف فكر باشلار عن السير كنجم: يعود إلى ذاته، ويستعيد بلا توقف هواجس قديمة. إنه لا يرسم على الأقل منحى تطور نهائي، ربما في اتجاه واحد. في غالب الأحيان، فإن المفسرين يحصرونه في نوع من اللازمانية القطعية ويقاربون وفق أهوائهم، الأسئلة الدائمة المتعلقة بالثنائية وكذا ـ الوحدة ـ الداخلية ثم الصلات بالتحليل النفسي، والتكاملية الضرورية بين المفهوم والصورة. بذلك يخفون ما هو رئيسي وهو كون فكر باشلار أيضا تطوري، يلتزم برفض متصاعد لطريقة معينة في التفلسف، ويتغذى دائما بامتياز من المراجع الأدبية، كما أنه قد ترك وراءه إبستمولوجية مبدعة وغير مكتملة. وتحمل الرسائل الموجهة إلى "لوي غيوم" في عمقها شهادة عن هذه المراحل والتي سيرتبط بها مصير جديد في الكتابة والتفكير، تتلازم ملاقاة الشعراء بإعادة تقدير للفكر. حينما كتب باشلار: "قصيدتك فيها كثير من العمق بحيث أنها تشرف الفلسفة " (رسالة 30 تشرين الأول/أكتوبر 1951)، يظهر بأن الصيغة التي وظف تفترض بشكل واع أولاً، مسألة كون الفلسفة مازالت تأخذ مكانا ساميا. بالمقابل، حينما تأخذه الحماسة يكتب: "آه! كم يفكر الشعراء جيدا!" (15 أيار/ماي 1952)، انطلاقا من ذلك

سيعتقد القارئ المتهتك، أن الفلاسفة -وللأسف- يسيئون التفكير في غالب الأحيان: أبدا ليس لأنهم فلاسفة، ولكن لأنهم يستسلمون لإغراءات بعض الانحرافات اللغوية والتي تشكل حقا أمراضا معاصرة[4]. وبالتأكيد سيكون سهلا أكثر منه مؤلما أن نشير بالإصبع إلى شعراء، هم كذلك "لا يحسنون التفكير" بل ولا يفكرون على الإطلاق. ذلك لم يمنع فيلسوفنا من اتخاذ خطوة إضافية، حينما سيكتب بعد عشر سنوات: "يجب القيام بقصائد مكان الكتب" (رسالة 21 نيسان/أبريل 1961). فيما وراء صيغة المقام، هناك حيز كذلك وبالمقارنة مع نماذج أخرى مشابهة، لأن نقف على مسلمة جوهرية في هذا التأكيد: حينما قال الفيلسوف ما كان يتوخاه، بقي عنده شيء لم يتم إشباعه وهو ما يمكن تسميته بـ"الرغبة الشعرية". يحلق طائر منيرف (Minerve) عند سقوط الليل تقريبا من خلال مسار مختلف عن الذي تعودنا عليه.

دون تحريف للملاحظة، يمكننا القول بأن باشلار أنجز

---

(4) قليلا بعد ذلك، فإن باشلار سيوضح هذه المسألة بقساوة في مقطع من "شاعرية المكان"، متحدثا عن "السرطانية الهندسية للنسيج اللساني في الفلسفة المعاصرة". ويضيف: "ألا يظهر بأن تركيبا متصنعا حينما يتوخى الربط بين الظروف والأفعال بشكل مجموعة من الإفرازات الزائدة؟ هذا التركيب، بمضاعفته= =لصلات الوصل فإنه يحصل على: جمل -كلمات. ظواهر الكلمات تنصهر بداخلها، وتصبح اللغة الفلسفية لغة لاصقة" ص: 192.

في حقل الفلسفة ذاته، نوعا من الثورة الثقافية. لا يرتكز التفلسف فقط على التأمل في دراسات فلسفية. وكان مونتنيه (Montaigne) قد أعطى صيغة لذلك بالتهكم من كل هؤلاء العلماء، الذين لا يتوقفون عن الانتقاد. التفلسف عند باشلار يقوم كذلك على تأهيل فضاء ومنحه رتبة: مسكناً.

التأهيل يعني كذلك: إعداد شبكة من الخاصيات النوعية. لذلك، فإن مفهوم المنزل يعود بشكل متواتر في الرسائل التي وجهها إلى "لوي غيوم". هذا ليس مفاجئا كثيرا، لأنه كان يشتغل على "شاعرية المكان"، الذي سيظهر عام 1957. ما كان متميزا عنده هو أن الفيلسوف سيقاربه من خلال انحراف كبير عن الشكل المشروط: أو بمفاهيم أخرى، فإن البيت الحلمي هو الذي كان من اللازم السكن فيه. الإشارة هنا إلى أكواخ "فان غوغ" تطرح على الفور ملاحظة دراماتيكية عابرة. وفي الرسالة الثانية، فإن الفيلسوف يتأسف لكونه لم يطلع على "منزل الريح" (أي عنوان بالفعل)! "للوي غيوم" حينما كتب عمله: *la terre et les rêveries du repos*. اعتراف 24 أيار/ماي 1953 يوضح ذلك أكثر، حيث يجد فيه صاحبه "حقيقة الحلم": "آه كم هي حقيقية المنازل التي لا نملك!". عدم الرضى هذا يظهر كذلك في الاعتراف المثير جدا لـ 3 كانون الثاني/يناير 1960: «كنت أتوخى قضاء حياتي بأكملها في مدرسة بالقرية».

في عالم النصوص الباشلارية، حينما يتم الحلم بكل

وجود في زمانيته الباطنية فإنه تظهر ما بين ثناياه أصداء وإيقاعات وكذا إمكانيات أن تكون باكرا على موعد مع الاستجمام. لقد بين "مايكل دوفرن"[5]، بأن الفيلسوف يعطينا الإحساس بأن وجوده الخاص لم يكن كما كان يفضله ويتوخاه. والحال، أن الأمر لا يتعلق فقط باعتراف ذاتي، ولكن بميتافيزيقا حقيقية للزمان، تتموضع على النقيض من الإمتلاء البرغسوني. كما أن هذا ينضاف كذلك في دارة قصيرة، مقاربا وعي الاحتمال المشار إليه كشيء ما في الأعلى. نحكم على أنفسنا بعدم فهم باشلار إذا استصغرنا من شأن هذا البعد الجوهري الذي تم الإعلان عنه منذ مؤلفاته حول "الزمانية"، واتضح مع سلسلة "العناصر"، ثم انبعث بقوة دراماتيكية مذهلة في المؤلفات الأخيرة، وكذا المسودات المكرسة لـ "شاعرية النار". سلسلة الرسائل الموجهة إلى "لوي غيوم"، لم تعمل إلا على تقوية هذا التأويل والذي يمكن ـ زيادة على ذلك ـ من تناول الاستبسال الباشلاري بشكل أفضل والتحمس لأحلام اليقظة على حلم اليقظة: وفقا لصورة عالم السكون، فإن العالم لا يتوقف عن الذوبان في كوجيتو الحالم، والصورة الشعرية عنده هي حدس حاد بعدم اكتماله أكثر من كونها تمجيداً له. شيء لا يترجمه أبدا، هذا

---

(5) انظر مقالة مايكل دوفرن: "غاستون باشلار وقصيدة الخيال"، الدراسات الفلسفية، العدد 4، 1963.

التداخل الذاتي الهادئ والذي يتوخى الوقوف على تأويل "شخصاني" لهذا العمل. فضلا عن ذلك «يخلق كوجيتو الحالم عالمه الخاص؛ عالم فريد يملكه حقا. يختل حلم يقظته ويضطرب عالمه إذا تأكد الحالم بأن حلم يقظة شخص آخر يقابل عالما مع عالمه الذاتي»[6].

فكرة الاحتمال -بلا شك مجردة بالنسبة للقارئ غير المتعود على الممارسات الفلسفية- تجسدت في هذا النقصان المطلق، أي تجربة الموت. لقد لازمت رسالة 15 أيار/ماي 1952 بأكملها قراءة قصيدة "لوي غيوم" والتي تحمل عنوان "شجرة الموتى". لمس فيها باشلار مقولة الموت بأسلوب فظ، تخفف منه بالكاد شبكة الصور النمطية الكبرى. يكتب متأملا فكرة قارب الموت، والحاضرة قبل ذلك في فصل من كتابه "الماء والأحلام": «أفكر في غابة النعوش والتي هي ربما الطبيعة الجوهرية للدلتات (Deltas) الكبيرة». الصورة مقلقة كما يرام، وماء النهر، كل الأنهر تحضن في عمقها آلاف الأقدار البائدة التي لا تعيها الذاكرة. فيما يخص ارتباط الشجرة بالموت، فإنها تشكل أحد العناصر القوية لهذا التطابق، نقطة إرساء بالنسبة للقارئ. إذ كان بديهيا أن الحياة النباتية تستبد بنا -على الأقل باشلار هو الذي أكد ذلك- فإنني أتقيد بوجهة نظره كلياً، وكذلك لأنه يظهر بأن النباتي يحقق التآلف المستحيل بين الحياة والموت، النمو

(6) *La flamme d'une chandelle*, p. 102 P.U.F. coll. Quadrige.

والانحطاط ثم الزمان الخطي والدائري. «لهذا نصبح أشجارا حينما لا ننهك الأرض بأسفارنا»! (رسالة 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1953).

بشكل عام، وبطريقة أحيانا ممتعة أكثر، فإن الفيلسوف يجد في قصيدة "لوي غيوم" مادة للاغناء سيسميها فضلا عن ذلك: «معشبة داخلية في عمق اللاوعي»![7]. عند غاستون باشلار كما عند محاوره، يمكننا أن نكتشف نوعا من التجاور الأنطولوجي الغامض بين الإنسان والنبات. لا يتعلق الأمر هنا بمجرد تقارب مجازي. الإنسان الباشلاري تماما مثل إنسان "لوي غيوم" «مأخوذ ومهيكل بوسط بينوي» يشكل منبعا لاشتياقات ورغبات لانهائية. إنه "رائحة النعناع" مثلما أن تمثال كونديلاك (Condillac) "رائحة للورد"[8]. بإيقاعاته الخاصة فإن هذا الكون يحرك إيقاعا جوهريا، وكذا بيداغوجيا للتوازن. وبالتأكيد يحتوي على مآسيه الصغيرة وأحداثه العابرة. لكن في كل الأحوال، لا يختزل إلى مجرد ديكور، أو مشهد طريف. بل من خلال حضور الحياة النباتية، على الفيلسوف كبح وكذا التخفيف من هذه الإغواءات الفاسدة مثل: الفكر الصعب والكلام المبهم

---

(7) Introduction à la dynamique du paysage, dans *le droit de rêver*, P: 82. P.U.F 1970.

(8) *L'eau et les rêves*, P: 10, José Corti.

والمتحذلق. إذا كان صحيحا، أن الفكر الفلسفي يلتمس التمرن على تقنية، فإنه لا يقوم فعلا، إذا لم ينظر على الأقل إلى هذه التقنية كنهاية: لأنه ليس هناك من نهاية أخرى للفلسفة غير تعليمنا الإقامة في العالم، دون توهم أو مغالاة أو عداوة، بقدر ما يكون ذلك ممكنا. التعود على التفكير الجيد[9]، هو تفعيل لدياليكتيكية الكتب والنباتات ثم مجابهة تجربة اللغة وكذا مقاومة الأشياء. على الفيلسوف أن يكون كذلك بستانيا! نفكر حقا مثلما نقول بأن شجرة تنمو بالفعل. وقد أكد باشلار ذلك بصيغة موحية: "إننا حقا نباتات جد هرمة".

الفيلسوف الذي يقود فكره خارج كل تمفصل نباتي حقيقي يجازف بقوة أن يتحول إلى سفسطة. هناك كذلك فلسفة "حضرية" تضع بين قوسين كل إحالة على "الكونية": لن نستغرب لكون مثل هاته الفلسفة، أو بالأحرى طريقة كهاته في التفلسف، تعكف بلذة على الهاجس الثنائي للتاريخ والسياسة. باشلار لا يستسلم لهذه الإغواءات. لقد كتب الفيلسوف جل مؤلفاته الأخيرة، ضد اعوجاجات الفكر الحضري والمجاملات الباريسية. من هنا، تأخذ بعض الفصول دلالتها والتي يمكن أن تظهر تافهة من الوهلة الأولى

---

(9) أثناء ندوة بجامعة ديجون سنة 1984، أثار انتباهي رأي لـ"Jean-Louis Backes"، بخصوص توظيف القاموس الباشلاري بشكل متواتر ومتعدد المعاني لظرف "bien".

كما هو الحال مثلاً، مع البروز الغريب لـ: "Pic-vert" في الفصل الرابع من شاعرية المكان. أو الرسالة الموجهة في 2 تشرين الأول/أكتوبر 1957 إلى لوي غيوم تعرض تظلمات نعثر عليها كذلك في رسائل أخرى. كيف نقرأ، ونفكر، ونكتب بيسر: «لقد وجد الإنسان من أجل أن يتنفس أحسن»! في حجرة من أربعة أمتار على أربعة؟ ويتابع الفيلسوف: «لقد تعبت ذاكرتي، مشاريعي تتقاطع، أفتقد الوقت في الغالب.كم هي القصائد التي أتوخى قراءتها ثانية، وبقلق كبير، أعثر كل يوم على إشارات غير مستعملة كان من الممكن أن تسند حجة كتابي. أترون كم أنا بحاجة إلى الإيحاءات ولمساعدة الشعراء». ليس مفاجئا أن باشلار يوجد في مكان ضيق من مكتبه بشارع: "La montagne sainte-Geneviève". مثلما كان متضايقا داخل المؤسسة التي شكلت إطاره المهني، يمكننا في هذا الإطار تجميع ملف سفيه. المؤلفات التي كتبها باشلار انطلاقا من "شاعرية المكان"، لا يطبعها فقط حنين: إنها ترسم مقدمات أنطولوجيا ناقصة بالأساس[10]. انطولوجيا فيلسوف "فقد عالمه"[11].

---

(10) في هذه النقطة، أسمح لنفسي أن أحيل على الفصل السادس: "أنطولوجيا مفقودة" من كتابي المعنون: *Bachelard et la mélancolie*.

(11) يوجد هذا التعبير الجميل في المقالة المهمة والتي تحمل عنوان "كون وحقيقة" ؟، كتاب: *L'engagement rationaliste*, P: 103. Quadrige/P.U.F.

يجب هنا، أن نتخذ خطوة إضافية. لأن ما يظهر في آخر المطاف مثير بالأساس، هو قياس إلى أي حد تزداد فيه المسافة التي تفصل عمل الإبستمولوجي عن توسط الحالم. لماذا نسعى بأي ثمن إلى توحيد ما لا يمكن بالفعل ذلك؟ من اللازم هنا إعادة قراءة المقالة المعنونة: "العالم كنزوة ومنمنمة"[12]، وكان باشلار قد وصف قبل ذلك بحدة مثيرة، الإختلاف الموجود بين التأمل الحالم لمنظر طبيعي ثم إبرازه بأشياء محددة. هذا الاختلاف تجسده دياليكتيكية الإنبساط والتركيز. لأنه إذا كنا بالأحرى ننظر جانبا إلى شيء غير مدرك ولكنه مؤسس وفق تهيؤ علمي خاص، فإنه حينئذ تزداد هذه المسافة وتغطي جدلية مبدإ اللذة وكذا مبدإ العمل.كلمة عمل ليست محايدة، إنها كلمة ثقيلة. هذه الإحالة على الجهد، نعثر عليها آخر المطاف في "شعلة قنديل"، كما تنساب كذلك في الرسائل الموجهة إلى "لوي غيوم" مثلا حينما يرى باشلار في نصوص الشاعر عذرا جيدا لـ"التخلص من القراءات الثقيلة" (رسالة 6 تموز/يوليو 1952). وحتى لا نخطئ فهم ذلك: فإن القراءات الثقيلة هي قراءات الفيلسوف

---

(12) مقالة ظهرت في "أبحاث فلسفية" 1933-1934 ثم ظهرت بعد ذلك في "دراسات"، العمل الذي قدم له جورج كانغليم، فران 1970.

أو بشكل دقيق، قراءات الإبستمولوجي المرتبطة بالكشف عن بنيات المادية العقلانية التي تظهر في إطار التنظير للكيمياء المعاصرة. لقد كتب "كانغليم" مجذرا قوله، بأن باشلار توقف عن الحياة حينما انقطع عن متابعة العمل الفلسفي المرافق للاشتغال العلمي[13]. بطبيعة الحال، لا أتعقب في هذا الميدان صاحب كتاب "معرفة الحياة"، ولكنني أعتقد بأن ملاحظته مهما بالغ فيها، فإنها لا تخلو من دلالة.

بقي لنا إنهاء هذه الدراسة الصغيرة باعتراف مذهل على نحو ملائم ومبهم بلاشك، يتحدد هذا بالضبط في رسالة 4 كانون الأول/ديسمبر 1956 -دائما إلى لوي غيوم- كجواب على إرساله المجموعة الشعرية المعنونة بـ: "La feuille et l'épine".

«حينما أقرؤك، أفكر في حياتي العبثية. لم تكن عندي الشجاعة للإنصات إليها في حقيقة إرادتي. المقطوعة الشعرية الرباعية، ص 19 تقول:

Les lingots encombrent ma cale
Qui ne seront pas monnayés
Je les jette par-dessus bord
Comme des semences futiles

(13) جورج كانغليم: *Etude d'histoire et de philosophie des sciences*, P.195. Paris. Vrin 1968.

يسعى الفيلسوف دائما إلى البرهنة عن كيفية العثور على زمان الإبداع».

لا شخص قد يفكر لحظة في أن يأخذ من الرسالة هذا التعبير: "حياتي غير المجدية". بلاشك يرتكب باشلار هفوة يوافق عليها بقصد في إحدى لحظاته السوداوية والتي تخترق أحيانا وجوده كضربات دبوس. كما أن عمله يقدم في الحقيقة مصادفات كثيرة من هذا النوع[14]. مع ذلك، منح هذا السر إلى شاعر عوض فيلسوف هو ذو دلالة: من الأكيد، أن هذا الأخير عنفه أو سخر منه. أن يكون باشلار، قد لامس متأخرا حلم الإبداع الأدبي، فإن هذا محتمل إلى أبعد حد، إلا أنه لا يحق لنا سبر هذا التعبير الجديد المشروط: «يبتغي الفيلسوف دائما إقامة الدليل عن كيفية موضعة زمان الإبداع؟». على أية حال، فإن مؤلف "شعلة قنديل" يتخلص دائما أكثر من هم البرهنة، يتحرر ويحررنا بامتياز من كل نزعة دوغمائية، تحليل لا يكتمل أبدا ليلا ونهارا. يحلق طائر الفينيق داخل الرجوع الأبدي للشفق: إنه لن يتوقف أبدا عن إدهاشنا.

(14) ألم يشر بوضوح إلى أن الرسام "سيمون سيغال" كان قد أنجز له صورة في يوم كئيب.

باشلار والشعراء: حول صورتين للوي غيوم[1]

نعرف بأن باشلار كان قناصا وجامعا للصور، الصور الأدبية والشعرية وأحيانا التشكيلية. نعرف كذلك بأنه "منفتح" جدا على القصيدة المعاصرة، ويجيب بلطف على رسائل مجهولين تتعلق ببعض الصفيحات الشعرية. «إن من يعيش للقصيدة، عليه قراءة كل شيء» (شاعرية حلم اليقظة) ص 23. «اندهش أولا، وبعد ذلك ستفهم» (شاعرية حلم اليقظة) ص 163. لم تسلم هذه الصيغ التي تبدو خطيرة، من الانتقاد! سيضع "لوي غيوم"، الاستشهاد الثاني في أسفل الصفحة المعنونة بـ"La nuit parle"، والمقدمة إلينا في نيسان/أبريل 1964. دون خيلاء أو كبرياء ومثلما هو دائماً، فإن باشلار ينساب وراء فكره ويدفع به إلى أقصى حدوده. لذلك من الضروري معرفة كيف نستعيد رؤيته وكذا منظوره، مع ذكر الفارق الأساسي إذا كان من اللازم حتما.

---

(1) Marcel Schaettel: "Bachelard et les poétes: sur deux images de Louis Guillaume", in *cahiers Gaston Bachelard*, N° 3, PP: 103-110.

لكن يمكننا التساؤل أولاً، عن ماهية الصورة الشعرية عند باشلار. سنحرص فعلاً على اختبار تعريف. لنقل فقط، بأنه يجب أخذ الكلمة في معناها الواسع ودلالاتها المتعددة، وبأن الصورة عند باشلار هي أولا وقبل كل شيء مولدة لحكم اليقظة (Rêverie). يجب التمييز بوضوح بين الصورة والمفهوم (شاعرية حلم اليقظة، 45). فصل سهل، أنعشه فيلسوفنا وذلك بوضع الصورة تحت إشارة الأنيما (L'anima)، في حين ربط المفهوم بالأنيموس (L'animus). من جهة أخرى، يجدر الإعلاء من شأن الصورة التي تحدث حلم اليقظة الشعري (شاعرية حلم اليقظة) في مقابل المجاز، والذي هو في الغالب ليس إلا "انتقالا للأفكار" (شعلة قنديل، 2). ما زالت تقوم في الذهن، بينما الصورة الشعرية إبداع للروح، "وبروز للغة"، انبجاس "يعلو دائما اللغة الدالة شيئا ما". (شاعرية المكان، 10)، "مانحة للوجود" (شاعرية المكان، 80).

نفهم بأن الصورة الباشلارية يمكن أن تأخذ بالفعل أشكالا مختلفة ويمكنها مثلا أن تتطور تقريبا. يكفي أن تكون مادية ودينامية حتى ترفع مرساة حلم اليقظة وتضع الخيال في ارتجاج. الأمثلة المختارة من قبل باشلار تؤكد ذلك: تكفي بعض المقاطع الشعرية، جملة بل وحتى كلمة ابدعها الشاعر ثانية حتى "تدوي" الصورة الجديدة في روح القارئ. وقد اعترف باشلار دائما بالقيمة الخاصة للصورة "السوريالية"،

والتي تربط بين حقيقتين متباعدتين لكي تجعل منهما حقيقة جديدة، "عنصران" مثلا لهذه "الصور-الجمل" أو "الحكم-الشعرية" (شعلة قنديل، 72)، التي تلقي بك داخل عالم جديد. "شجرة النار، فوارة ماء"، ذلك ما يجب أن تكون عليه أغنية الشاعر، أو أيضا "شجرة منبع، شركة منبجسة، قوس النار" (حسب أوكاتافيوبات، شعلة قنديل 77، 76). «لقد دخلنا مع شعراء عصرنا إلى عهد القصيدة المباغتة، قصيدة لا تثرثر أبدا، لكنها تتوخى أن تعيش دائما الأقوال الأولى» (شعلة قنديل، 76).

يجب أن نلاحظ أخيرا وفي حدود، أن كلمة جميلة ربما تصبح صورة بالنسبة للقارئ وكذا الشاعر، إذا تم وضعها في منظور يمتدحها ويعتني بها ويمجدها جيدا. لقد كان باشلار "حالم كلمات" (شاعرية حلم اليقظة. الفصل 1). من الطبيعي أن تكون له القدرة على رؤية صورة جميلة بالقوة في بعض الكلمات الجميلة بل وحتى "علاجا" أصيلا (شاعرية حلم اليقظة، 27). حينما نقرأ مثلا التاريخ الجميل (المختصر)، والمأخوذ من ذكريات العاصفة القوية، حيث الطفل الذي سقط في الماء، تدفئه أمه في مرقده، ينام معها في الحال «نكتشف النوم الحقيقي في المهد، لأننا ننام في الأنثوي» (شاعرية حلم اليقظة، 42).

كتب ريلكه (Rilke)، الشاعر الذي يحبه باشلار: «هل تسمح لنفسك بالتكلم عما تسميه تفاحة» (Les sonnets à

(Orphée "راقصوا البرتقال". فاكهة وأشياء وصور "لا تنضب"! "سبل عوالم تشع انطلاقا من الشيء المشهـــور" (شاعريـة حلم اليقظة، 134).

مفهوم كهذا للصورة الشعرية كيفما كان شكلها، يتضمن بالتأكيد طريقة في قراءة الشعراء. يمكننا من جهة أخرى مناقشته، لأن باشلار "يقتطف" صورة من القصيدة، بالتأكيد قصيرة (بعض المقاطع الشعرية وبعض الكلمات) ولا يهمه أبدا التركيب العام بل وحتى السياق. لنأخذ في الحسبان فقط، أن فيلسوف الخيال يطلب منا المشاركة في حلم اليقظة المبدع للشاعر (مهمة ثقيلة!) والعمل على إنشاء الصورة الأصلية والأولية -مادية ودينامية- والحلم بـ"العنصر" ثم التقولب مع حركة المقطع الشعري: «آه! لو أن هذه الصورة التي أعطيت لي كانت صورتي حقا، صورتي بحيث تصبح موضع فخر عند قارئ عملي»! (شاعرية حلم اليقظة، 4). القطع مع عادتنا في القراءة "المعتادة"، والانتقال إلى عالم آخر تحكمه قوانين ثانية غير تلك التي تنظم الحياة المألوفة والمبتذلة. تناول "القصيدة من خلال تحمسها للصيرورة الإنسانية عند ذروة إلهام يسلمنا إلى القول الجديد " (شاعرية حلم اليقظة، 8). هذا الشيء ليس بالبديهي! باشلار يعرف ذلك الأمر، وهو الذي سيتحول إلى ظاهراتي بعد أن كان فيلسوفا للفكر العلمي و-بشكل ما محللاً نفسياً- سيعمل على

استحضار هذه "الدراما الصغيرة اليومية" في مقدمة شاعرية المكان.

بالضبط في الفصل الثاني من هذا العمل، يوجد الاستشهاد الأول بـ: لوي غيوم[2] والذي شكل نموذجا في (شاعرية المكان، ص 64) من خلال الفصل المعنون

---

(2) كان لوي غيوم واحدا من "أصدقاء روشفور". من بين أعماله الشعرية نذكر:

-*Noir comme la mer* (1949).

-*La nuit parle* (1961).

-*Fortune de vent* (1964).

"فن نافذ وواسع في نفس الآن" حسب ناقد.

انظر لوي غيوم "غاستون باشلار والشعراء" في "دفاتر الجنوب"، رقم 376 شباط/فبراير ـ آذار/مارس 1964. مجموعة من الاستشهادات الطويلة، المأخوذة من أعمال باشلار حول الخيال الشعري. باشلار: "شعلة تنقل ارتعاشتها ونورها إلى روح كل الشعراء" ... "لم يكن فقط صديق وموضوع ثقة الشعراء، ولكنه هو نفسه شاعر كبير". حتى ولو من الممكن الاعتراض على هذا التأكيد من خلال هذه الصيغة، لكن ذلك لا يعني أنه بدون سند واقعي.

في نفس العدد: "يبين باشلار، بأن الكلمة المنبثقة من اللغة التقليدية، تتجاوزها وتدخل في عالم غير متوقع وجديد" (حسب ماكس بيكار).

يستحضر ج.ب.فاي: "هذه الأعين الفاوستية (Faustiens) باعتدال، قادرة على أن تعيش "الحركات الباطنية" داخل كلمة: شعلة وحيدة، أنا وحيد".

بـ: "Maison et Univers"، إنه تتمة لعدة مقاطع مأخوذة عن مشاهير المؤلفين (مثل بودلير، وريلكه وأو هنري وبوسكو)، ثم صور بعض الشعراء المعاصرين المعروفين قليلا. باستثناء روني شار، حيث استشهد باشلار ببداية المقطع الأخير من قصيدته النثرية بعنوان: "Lépi de cristal égrène dans les herbes sa moisson transparente" والموجودة في مجموعة "Fureur et mystère". وقد جاء في نهاية القصيدة ما يلي: «في حجرة أصبحت خفيفة، تنمي شيئا فشيئا الفضاءات الكبيرة للسفر، يتأهب مانح الحرية للإختفاء والإمتزاج بولادات أخرى، مرة ثانية».

'مانح الحرية'، يمكنه أن يكون بالفعل الشاعر كما تخيله باشلار. والموت الذي تليه ولادة ثانية يذكر بالفينيق الشعري لـ "Eluard" أو "Yves Bonnefoy". لكن باشلار لا يأخذ هذه الصور هنا. إنه يقترب في أحلام يقظته التي تستمد غذاءها من شعراء مختلفين جدا، من هذه 'الغرفة التي أصبحت خفيفة' في «البيت المغطى بالفجر/المنفتح على ريح طفولتي» لـ"Jean Laroche". هذه أحلام اليقظة تأخذ وضعا طبيعيا جدا في التطور إلى هذه المنازل أو الغرف «التي تتوحد بالريح، وتبتغي الخفة الهوائية».

هنا تأتي قصيدة "La maison de vent" للوي غيوم في: "Noir comme la mer". سنلاحظ أولا، بأن الأمر يتعلق باستشهاد طويل بما يكفي: ثمانية مقاطع شعرية. وقد أثارت

انتباه باشلار المنظومة الثانية من القصيدة، والبيت الشعري الأول من التي تليها، مبعدا بذلك بحراً اسكندرياً شاذاً:

"Maison de vent demeure qu'un souffle effaçait".

في قصيدتين مختلفتين، كما هو الحال مع "روني شار" و"لوي غيوم" فإن مفهوم المحو، الاختفاء (يمكن أن يكون عابرا) يتموقع ثانية بعد مفهوم الخفة والتعالي «بيت للحلم تحمله الرياح» يقول لوي غيوم. لقد درس باشلار ظواهر كثيرة من هذا النوع في كتابه (الهواء والأحلام) والذي توخى منه أن يكون "دراسة لخيال الحركة". تكلم عن خيال يستمد وظيفته وسعادته من محو الصور! (الفصل السادس، ص: 195).

لكن لوي غيوم يدعونا أولاً، (ومعه الفيلسوف صديق الشعراء) إلى بناء منزل الحلم هذا: "منزل الهواء الذي تشيده أيادينا"... ذلك حقا معجزة القصيدة، وحلم اليقظة الشعري: التشييد والبناء بالأحجار والريح، فيتوحد بذلك عنصران مختلفان حتما، أحدهما صلب وثابت والآخر هوائي ومتغير أو بشكل أفضل: نقل وتكويم الأحجار لتأسيس "كاتدرائية للصمت" خفيفة ومتلاشية:

"Et je voyais, chaume couvé par les saisons,
Ton toit changeant comme la mer,
Danser par le fond des nuages,
Auxquels il mélait ses fumées."

الأرض (الحجر) تصير ماء وهواء. والصور التي تظهر مع أحلام يقظة الاستراحة (عش) وكذا أحلام اليقظة المهدهدة، تتحول إلى دينامية (رقص).

من خلال التعليق الذي يقدمه باشلار للعقول الوضعية، فإنه لا يتردد في توظيف اللغة المتكلمة الجارية التي تصلح هنا: «لا يقف هذا متماسكا»! الدعابة دائماً حاضرة. "الواقعي"، لا يرى في صور الشعراء كيفما كانت إلا شيئا وهميا. "منزل الريح" لا يمكنه الوجود. وعلى العكس من ذلك، فإن الحالم بالمنزل يرى المنازل في كل مكان. يربط باشلار مقاطع شعرية لـ"Jean Laroche" مع أخرى لـ "Jean Bourdeillette".

"Cette pivoine est une maison vague,

Ou chacun retrouve la nuit,

Tout calice est demeure,

Pivoines et pavots paradis taciturnes"!

البحر الإسكندري الأخير، والذي حور بمهارة، فإنه بالنسبة لفيلسوف الصور الكونية "مقطع شعري للانهائي". نجد ثانية "J. Bourdeillette" في الفصل الرابع من كتاب شعلة قنديل (الصور الشعرية للشعلة في الحياة النباتية). لنأخذ هذين المقطعين الشعريين (يمكننا أن نقول "هذا المقطع") ثم نقابلهما بالبحر الإسكندري السابق: Les lupins bleus brûlaient/comme des flammes douces.

يظهر التفسير، بأن باشلار يجد رصيده سواء في الصور الهادئة أو تلك "القابلة للإنفجار". إنها دائما "ابتهاجات القول" (شعلة قنديل، 82)[3].

بالضبط في "هذا الكتاب الصغير لحلم اليقظة"، وفي الفصل الذي تتوحد فيه الشعلة بالعالم النباتي، يوجد التعليق على قصيدة نثرية وبالتحديد عن "الصورة-الأصل" لـ لوي غيوم. يجب أن تقوم الصورة في جملة حسب باشلار، حينما يتوخى الشاعر ربط الشعلة بـ"حقيقة العالم النباتي". يمكننا إذن، الحديث عن حكم شعرية (وليس شذرات)، بخصوص هذه الصور-الجمل والتي كما لو أنها مبادئ لحلم اليقظة. صور قطعية "كل قصيدة بداية" (شعلة قنديل، 72). لقد ذكر باشلار مع بداية الفصل بفكر نوفاليس: «ليست الشجرة بشيء آخر غير كونها شعلة مزهرة». لكن الأمر يتعلق أيضا بفكر له على أية حال، المقدرة بأن يكون مكثفا وذلك إذا قابلناه بتطور "بليز دوفيجنير" (Blaise de Vigenère) (شعلة قنديل، 71). فلأنها شجرة، تأخذ طبيعيا قيمة رمزية: «الشجرة في الواقع، أكثر من كونها شجرة» يقول ببساطة (Gilbert Socard)

(3) أتخيل امرأة جميلة وناعمة، تقول وتعيد قول هذين المقطعين وهي تنظر إلى نفسها في المرآة. ستكون شفتاها سعيدتين وهي تتعلم التزين ببطء. (شعلة قنديل، 82). يمكننا قراءة هذه الجملة الأخيرة كبحر اسكندري.

(ورد في شعلة قنديل، 77). ويضيف (Yves Bonnefoy): «طبيعيا، فإن الشجرة هي بين ديسيبل "Le dicible" وكذا لوترانس-ديسيبل. صورة "لوي غيوم" الملتقطة من قبل باشلار، تمثل هنا مثالا جيدا حتى وإن كان الفيلسوف ينتزع شيئا قليلا من حمولتها. وفقاً لعاداته في القراءة، فإن باشلار يتوخى الاستفادة بعمق من إيحاءات الشعراء. وبالنسبة إليه فإن "الحكم الشعري" ليس هو أقصى شكل يمكن أن تأخذه الصورة. يمكننا أحيانا أن نكتشف من خلال مقطع أو جملة «أصل صورة، صورة ـ أصل ومبدأ ـ صورة». كلمتان مترابطتان في وحدة يمكنهما أن تشكلا أساسا كافيا في بعث حلم اليقظة الشعري، مثلا بالجمع بين عنصرين متضادين. إنها حالة صورة سوريالية، مثل "شعلة ماء" لأندريه بروتون. صورة "لوي غيوم" مختفية أكثر. وسيكتشف "دكتور" أحلام اليقظة صورة ! "Bûcher de sève" في "السنديانة الكبيرة". وبالضبط وقف على هذه الصورة- الأصل في الجملة ما قبل الأخيرة من القصيدة.

قرأ باشلار: "Le vieux chêne" و"Bûcher de sève" معطيا بذلك قيمة ثانية للنص، وجاعلا منه صورة "كونية" عريقة. القصيدة النثرية لـ "لوي غيوم" تأخذ صفحة واحدة تشتمل على خمسة أقسام. كلمة "Laocoon" (نداء دعائي) تتكرر وتبرز بوضوح، ومحاطة بالبياض قبل الفقرة الأخيرة.

لكن ليست تلك هي الصورة التي يحتفظ بها باشلار. الشاعر يدعونا أولاً، إلى أن نكتشف هذه "الغابة الشتوية ذات الثعابين المدوية" والدخول إليها. شخص ما يتقدم وسط الممر، مزيحا بعصاه الأغصان الصغيرة التي تشبه الأفاعي. لحظة احتفال مخيفة «الخوف يدب إلى رجليك والطيور تصمت» وفجأة ينبثق "لاوكوون"[4]، "مجنوناًأو مكشراً"، ومشدوداً إلى الأرض، أسير جوارح الثعابين! «آه من صرخة الغضب الصامت، أبدية عبر الغابة!». وهاهي الفقرة الأخيرة، التي سيأخذ باشلار صورتها: «يغني الوقواق، تسير في طريق السنديانة الشائخة، إنها جليلة وأخوية. دغل جبار، محرقة النسغ، كل العروق الربيعية هناك. قاهرة الثعابين، تنظر إليك وأنت تبتعد، وهي تضحك!».

لقد وظف إذن، باشلار صورته بجملة طويلة موزونة جدا من متوالية بثمانية مقاطع متناسقة أصلا "دغل جبار، محرقة النسغ"، وحده المقطع الثاني أثاره بأصالته وكذا ملاءمته. بقراءة هذه الكلمات الثلاث، أحس باشلار بشعلة تلتهب "داخل الشجرة"، هذا المثال يناسبه من أجل تضخيم الصورة "بروز اللغة" (جمالية المكان، 10) إبداع مطلق. محرقة النسغ، كلام لم يتم قوله قبل ذلك، حبة مقدسة للغة جديدة

(4) بطل طروادي (المترجم).

عليها التفكير في العالم بالقصيدة. «لقد نسي الفيلسوف كل الباقي، فهو حقا وحده مع صورته، يمكنه الحلم بآلاف الحكم الشعرية في موضوع الشجرة: حاملة-النار»[5].

ليس فقط هذا "القارئ الغريب" لم يقرأ القصيدة جيدا، لكنه توخى الاحتفاظ بالصورة وتمجيد هذا «النسغ الناري الذي يعطي قوى النار إلى ملك الأشجار» صورة لا توقف القارئ المتسرع.

لقد استبعد باشلار عمدا الشكل الأسطوري لـ"لاوكوون" وعوضه بذلك الذي لـ"هرقل" حيث كان موته تأليها له، بل يمكننا التفكير في فينيق (Phénix). الصورة الباشلارية لها قدر أن تتضخم وتصبح كونية بعد عثورها على سمو الأنماط المثالية. هنا عنصران متعارضان (ترتبط النار بالماء بعمق، فيتم خلق عالم "التعارضات الكونية"). إن باشلار الذي ساعده وألهمه الشعراء، يكتشف دائما على الأرجح عناصره، عناصر مادية متحركة وتشتغل من جديد في صورة. «لقد جمع لوي غيوم في ثلاث كلمات النار بالماء، إنه انتصار كبير

(5) من الأفضل التأكيد على أن باشلار يعطي أحيانا موقعا أكثر لاستشهاداته وتعليقه، وبشكل خاص حينما يتعلق الأمر بأعمال مهمة في النثر (الشعري)، مثل المنزل "ذو الجذر الكوني" عند هنري بوسكو" في:(L'antiquaire). أو "حلم اليقظة أمام الموقد" في Malicroix مع نفس الكاتب.

للغة، وحدها اللغة الشعرية يمكن أن يكون لها مقدار من الجرأة. حقا نتموضع في ميدان الخيال الحر والمبدع» (شعلة قنديل، 75).

لنترك الفيلسوف عند طاولة وجوده، ثم نقول بعض الكلمات عن علاقاته الإنسانية، لقد زار "لوي غيوم" باشلار مرارا. يتذكر الفيلسوف بتأثر، حيث يكتب قائلا: «يغط ريشة قديمة من الحديد في محبرة متوحلة». لكنه سيضيف في الحال: «حينما تخشخش ريشتي، فإنني أفكر بشكل زائغ. من سيعيد إلي أيضاً حبر حياتي المدرسية الجيد؟» (شاعرية حلم اليقظة). كان الفيلسوف صديق الشعراء، مضيافا جدا. قامت بينه وبين بعض الكتاب، روابط الصداقة والمحبة، نورد هنا شهادة لهنري بوسكو، والذي نقل عنه باشلار مرارا وعلق عليه، كما أهدى إليه كتابه "شعلة قنديل": «أدين له بكثير من قراءاتي القيمة، لكن بوضع هذا الاهتمام جانباً (وهي تؤخذ في الحسبان) فإن في الرجل ذاته شيئا يجعلك تحبه. رؤية باشلار والتحدث إليه ثم التماهي بحماسته. لا توجد تسلية أكثر من ذلك»[6].

منتدى سور الأزبكية
https://twitter.com/SourAlAzbakya

---

(6) وها هي مثل مرآة شهادة باشلار: «لقد وجدت مددا كبيرا من حلم اليقظة في الذاكرة. من خلال روايات كثيرة لهنري بوسكو، فإن القنديل شخص بكل معاني الكلمة» (شعلة قنديل، 16). كذلك «القنديل هو كائن الصفحة الأولى» "Hyacinthe". أورده باشلار في (شعلة قنديل، 100).

فيما يخص التأثير الذي مارسه فيلسوف المتخيل على الشعراء، يقول لوي غيوم مجيبا على تساؤل، بعدما أكد (وهو ما يمكن أن نشك فيه) بأنه لم يتلق من الفيلسوف لا نصائح ولا اقتراحات: «لكنه جعلني اكتشف ما تنطوي عليه قصائدي من عناصر، وبأنني ما قمت به غريزيا قبل إدراكه، كان قد نظم وقصد بعد ذلك. كل قصيدتي تموضعت تحت إشارة البحر والريح، ثم الحجر والنار فيما بعد» منزل "أومبيدوكل" في: "Fortune de vent" (جوزي كورتي، 1964) يتأتى من عمق الليل «في شجرة مجتثة/يستكشف شعرا/والنار التي تنطفئ وكذا الحمم»؛ هكذا تتداخل صور المنزل والباخرة والشجرة والماء والنار والأرض بل وحتى الهواء. هناك المنزل تحت البحر (منزل سائل) يأخذ مفهومين أو ثلاثة، صادفناها من قبل. الستائر تتموج "مثل شعل مبللة". جوبير الذي أورده باشلار في (شعلة قنديل، 23) كتب: «كل شعلة هي نار رطبة».

"صورة ـ فكرة ـ جملة" يقول باشلار. حلم يقظة

= لقد قرأنا وأعدنا قراءة "Hyacinthe"، «أبدا لم نقم بنفس القراءة مرتين (...) نحلم كثيرا ونحن نقرأ ونتذكر بإفراط كذلك». (شعلة قنديل، 105)، يتحول الإقرار إلى بوح، ويأخذ أسلوب الشاعر شكلا شعريا. كان عنوان الخاتمة ما يلي: "قنديلي وصفحتي البيضاء". "في الوجود الأول، نرى ونفكر ونقول ونكتب كل شيء" (شعلة قنديل، 111) أي مخطط.

مكتوب، حلم يقظة رصين، وحلم يقظة كوني. نكتشف كل التنوعات وكذا الأشكال التي يمكن لحلم اليقظة الباشلاري أخذها. بالتأكيد فإن "شاعرية" الفيلسوف تطرح كذلك بالفعل إشكالات. لكن باشلار وهو يؤكد على أهمية وقيمة "وظيفة اللاواقع" وكذا الإنسان الأدبي، ساعدنا على الأقل في تذوق أفضل لصور الشعراء المتميزة، وأن نقلبها بشكل أحسن بل وأن نجعلها صورا لنا. وأظهر لنا بأن «حلم اليقظة يعطينا عالم روح، وبأن الصورة الشعرية تقدم الدليل عن روح نكتشف عالمها. عالم تتوخى أن تعيشه، وجديرة بأن تكون فيه» (شاعرية حلم اليقظة، 14). لقد علمنا «قراءة تكون دائما عند قمة الصورة، وتنزع إلى الرغبة في تجاوز القمم» (شاعرية حلم اليقظة، 176).

باشلار عند العرب[1]

حتى وإن كان حضور غاستون باشلار محدوداً في نفوذه، إلا انه في العمق مهم جدا. في الواقع، وربما بشكل يتناسب مع قدر هذا الرجل الكبير، فإن هذا الحضور يتركز بالخصوص في المؤسسة المدرسية. ألم يكن أولاً، غاستون باشلار أستاذا كبيرا؟ من ثانوية قريته إلى جامعة ديجون ـ مدينة رائعة وطأ أرضها الكبار، يمكن أن نشير فقط إلى بوفون (Buffon) وروسو (Rousseau) ـ ثم في السوربون فإن غاستون باشلار كان الأستاذ الجليل لكثير من أساتذتنا من بينهم جورج كانغليم وفرانسوا كورتي وفرانسوا داغوني.

عند العرب كذلك، كان باشلار دعامة لتدريس الفلسفة سواء في الثانويات أو الجامعات. نظرة خاطفة، تظهر بأن كتب الصف النهائي والدروس الموجهة للطلبة ثم الرسائل

---

(1) Amor Cherni, Université de Tunis I, in *Bachelard dans le monde*, sous la direction de Jean Gayon, Jean Jacques Wunenburger. Presses Universitaires de France, 2000. PP: 115-133.

والأطروحات تحمل صدى الفكر الباشلاري قبل المؤلفات اللامدرسية. لكن ما يجب إضافته بسرعة هو كون هذا الصدى ليس بمتجانس ولا مشترك. لقد لعب فكر باشلار دورا متعدد الأشكال والأبعاد.

الفكرة التي أريد أن أتقدم بها هنا ترتبط بالدور الجوهري الذي لعبه فكر باشلار ولايزال كذلك. دور، إذا اعتبرنا كل شيء، إيديولوجي أكثر منه فلسفي. لكن إكراما للفيلسوف، فإن هذا الدور يقارب ذلك المتعلق بالمقاوم الذي كانه أو توخى بالتأكيد أن يكونه. مقاوم ضد الدوغمائية والتعصب، وضد المدافعين عن الأفكار البالية وكذا المفاهيم القديمة عن العالم والإنسان. جابه فكر باشلار أولاً، الماركسية والتحليل النفسي ثم الإثنولوجيا، وذلك من أجل إثارة الفكر النقدي عند الشباب المترشح للمعرفة وجعله يكتشف بأن كل حقيقة لن تكون في منأى عن التاريخ والزمان بأحداثه. سنلاحظ بأن هذه الرسالة بقدر ما تقوض فإنها جوهرية أكثر، حيث تتوجه إلي الشيء الأكثر أهمية في العالم أمام أعين الأفراد: الحقيقة العلمية. إذا بدأ العلم باكتشاف نسبية حقيقته الخاصة، فإنه لن يقر بأي طموح للمطلق مهما كان الجانب الذي يتأتى منه.

لهذا السبب، وفي مرحلة ثانية، حينما ستعرف الماركسية مجموعة من التقلبات المهمة داخل البلدان العربية قبل البلدان المدعوة اشتراكية بكثير، بالقمع العنيف قبل الفساد الداخلي، وحينما ستتجاوز الموضة التحليل النفسي والإثنولوجيا، فإن

الإبستمولوجيا وحدها ستصمد تقريبا، مادام لها الامتياز الثاني بأن تتخلص نسبيا من القمع وكذا الموضة.

تلك، في رأيي، المرحلتان اللتان عرفهما الفكر الباشلاري منذ 40 سنة على الأقل في الضفاف الجنوبية من البحر المتوسط، حيث كان هنا للفلسفة بعض الحظ من الازدهار. يجب أن نضيف من أجل إتمام هذه اللائحة، أنه أثناء هذه المرحلة الثانية، تلك التي استمرت عشرين سنة تقريبا، برزت ظاهرتان أساسيتان، تعريب باشلار ثم انتشار أفكاره خارج المؤسسة المدرسية، نريد أن نقول: في مؤلفات مكتوبة وصادرة عن ناشرين محترفين في بيروت أو الدار البيضاء.

لنقل إذن بسرعة، إن الأدب الذي سنهتم به هنا تتوزعه مجموعتان كبيرتان: الأولى، تتألف من كتب صادرة لها خاصية مزدوجة فهي موجهة إلى العموم، وتقدم كذلك وسائل للاشتغال الجامعي مادام أنها تمثل على العموم دروسا تم تدريسها قبل ذلك، كما تقدم أيضا مناهج رسمية للتدريس. في حين أن الثانية، تقوم على أعمال يفترض في كونها بحثا جامعيا، وموجهة للحصول على دبلوم مثل رسائل ما بعد الميتريز أو أطروحات الدكتوراه. نموذج الحالة الأولى أقامه المغاربة والذين كتبوا بالعربية، في حين أن النموذج الثاني مثله التونسيون والذين بالرغم من التعريب واصلوا تقديم أعمالهم بالفرنسية. مع ذلك، ونظرا لأهمية هذا الأدب

المكتوب بالعربية والصادر عن ناشرين مشهورين، فإنني سأكرس له جوهر هذا العمل. مكتفيا بالطبع، بمجموعة من العينات المحدودة[2].

لكن تجب الإشارة بسرعة إلى شيء يظهر بأنه يقدم نفسه كشذوذ: قلة الترجمات العربية لكتابات باشلار. ممارسة لم تهم إلا بعض النصوص التي لها خاصية مزدوجة، بحيث هي في الآن ذاته قصيرة نسبيا كما أنها تعرض لتراكيب صادمة دون جهاز موسوعي كبير. مثلما هي الحال مع "الفكر العلمي الجديد"، و"فلسفة النفي" ثم "جدلية الزمان". كل شيء يتم كما لو أنه مهم أكثر بالنسبة للباحثين العمل على تأويل باشلار عوض تركه يتكلم بنفسه. مسألة تزداد مع مؤلفين هم في الظاهر أكثر صعوبة على مستوى الترجمة مثل "روسو" أو "ديكارت" أو "كلود برنارد" أو "فرويد"، كان لهم بشكل وافر وفي جميع الأحوال، الإمتياز عن باشلار.

---

(2) من المثير أن نلاحظ بأن توظيف باشلار في الدراسات الأدبية ظل هامشيا جدا. في حين وكما هو معلوم فإن تطبيق مفاهيم ونظريات التحليل النفسي شيء متداول فيها. بالكاد نقف على ترجمة لـ"شاعرية المكان" بدمشق، ثم بعض الملاحظات في مقالات بمجلات منها بشكل خاص "مسألة اللاوعي في الصورة الشعرية" (بالعربية) للبوستاني، وذلك في بالفكر العربي المعاصر كانون الثاني/يناير 1983، (97-105). والذي يستحضر بشكل سريع الصلة بين "الصورة" و"حلم اليقظة". وكذلك اللحظتان المدعوتان: التحليل النفسي/الفينومينولوجيا". في نظرية الصورة.

يظهر بأن صعوبة ترجمة باشلار تقوم على نظامين. من جهة انحصار الجمهور الذي يهتم بفلسفة العلوم، والتي تتوجه حتما إلى النخبة. ثم من جهة أخرى، الجهاز الموسوعي الذي يؤسس مؤلفات باشلار حيث يوشك أن ينفر منه المترجمون. إلى هذا ينضاف سبب ظرفي، هو أنه إلى حد الآن فإن أغلب الذين تعاطوا مع الكاتب سواء من أجل أبحاثهم الخاصة، أو تقديمه للجمهور فإنهم كانوا قادرين على قراءته داخل النص. لذا في جميع الأحوال، فإن أي سبب متعلق باللغة لا يمكن إدخاله في الحسبان. ذلك أنه من جهة، لغة باشلار وكما يعرف كل واحد منا ذات فصاحة كبيرة. ومن جهة ثانية، المصطلح العلمي الذي يقتضيه جهازه الموسوعي خاضع تقريبا لمصطلحات خاصة.

كيف نرسم شبح الفيلسوف بملامح كبيرة؟ ما هي بصفة عامة الفائدة التي نكتشفها فيه؟ إجمالا، يظهر بأن ما يثير الانتباه، هو المجهود التركيبي الذي يحققه العمل. تركيب متعدد وعلى مستويات كثيرة. أولاً، يظهر عمل باشلار كأنه تأليف بين الفلسفة والعلم، ثم كتوفيق بين مذهبين فلسفيين متعارضين تقليديا، أي العقلانية والمادية. وأخيرا باعتباره أحد التأملات القليلة التي تمكنت من إقامة صلة بين الفرعين الأساسيين لحياتنا الروحية: العلم والقصيدة. لكن وراء كل هذا وما يؤكده، هو المجهود المبذول من قبل عالم/فيلسوف توخى إعادة إقامة الخطاب الفلسفي في قلب العلم.

بمفاهيم أخرى، في لحظة ظهرت فيها العلوم بأنها أخذت تحلق لكي تبتعد نهائيا عن الفلسفة، نقصد التأمل الخالص لكي تنخرط أكثر فأكثر في منعطفات التجربة والخضوع لتكنولوجيا متطورة أكثر فأكثر كذلك. هذا الإنسان ذو التواضع المثالي، سيخرج من عمق قريته لكي يسائل هذه العلوم في مفاهيمها ونظرياتها وفي بعدها الميتافيزيقي. وقد قام بذلك كعارف جيد، أو بعبارة ديزانتي (Desanti) من "الداخل" في أفق أن يقيم ثانية تقريبا، الخطاب الفلسفي في عمق العلم وهو يؤسس ذاته.

لذلك يبدو بأن أهمية باشلار يبالغ فيها أحيانا، أو ربما كذلك تشوه. ما يظهر من خلالها، صورة أسطورية ومتحجرة قليلا، متموضعة في رواق الكبار إلى جانب ديكارت وكانط. فيلسوف كبير أصلح العقل الإنساني على ضوء نظرية النسبية والميكانيكا الكوانطية ثم الميكانيكا التموجية. أو منظر كبير للمادة لم يذهب إلى أقصى أفكاره من أجل إتمام وإقرار الماركسية. هو رائد الفلسفة الجديدة، سليلة العلوم الحديثة.

باختصار، ما كان ربما أكثر أصالة في باشلار وتوقدا وتمردا، يظهر بأنه مستتر. مثلا قلما لوحظت العلاقة بـ أوغست كونت، كما أضمرت بشكل عام الصلة بـ كلود برنار. شيء مثير، أنه في اللحظة التي نشهر فيها نسبية باشلار، ننسى أو نتجاهل تاريخيته. بشكل أكثر وضوحا، فإن شارحي باشلار يحبون جدا مفاهيم العائق والقطيعة

الإبستمولوجية، لكنهم لا يتوقفون أبدا عند مفاهيم مثل "تكون" أو "الفكر العلمي". وقد أكد كاتب مغربي منذ سنوات، أن ما يشكل عائقا بالنسبة للثقافة العربية المعاصرة، هو عجزها عن الإقرار بالتاريخانية. الشيء الذي يجعلها تأخذ الماضي البعيد كحاضر حي دائما. ويبدو أن قراءة باشلار بنفس هذه الثقافة تقر هذه الفكرة بطريقة جلية. كل شيء يقوم كما لو أنه إذا عملنا تقريباً على تحنيط فيلسوف لم يكن كذلك، فإننا نتوخى بسرعة أن نجعل منه مفكرا داخل التاريخ من أجل الحيلولة دون أن يكون مفكرا للتاريخ.

لكن يجب ربما تنويع هذا الحكم، والتأكيد على أن شارحي باشلار ليسوا دائما بفلاسفة كبار للعلوم، وبأن الجمهور الذي يتوجهون إليه يمتلك بالتأكيد ثقافة تحول بينه وبين التمكن من تقطير الأفكار الجديدة والاكتفاء بما يبرز أكثر من هذه الأفكار وكذا مظهرها الظاهراتي الأكثر إدهاشا.

قراءة باشلار من خلال الثقافة العربية، يضعنا ربما بلا علم ودون أن نفكر في ذلك سابقا، داخل سياق يظهر بأنه يمكننا من تشكيل بعض عناصر ما يمكننا تسميته بنظرية للتلقي.

بالفعل وكما يقول فوكو فإن الثقافة نظام رمزي للتوجيه مشترك على المستوى الاجتماعي، إنها مجموعة رموز معروفة ومعترف بها من قبل مجموعة ما. كل نقل لثقافة أخرى، يجب حتما أن يفرغ على الأقل لبعض الوقت داخل قوالب

وحسب المعايير الخاصة بهذا النظام. يدرك المترجمون صعوبة إدخال فكر غريب عن ثقافة ما داخل هذه الثقافة نفسها. لذلك فإن الترجمة بصفة عامة، تسبقها مقدمة وتدعمها إشارات. ولكي تكون فعالة أكثر، فإنه من الضروري أن ينضاف إليها التعليق. ترجمة أرسطو إلى العربية، انطلاقاً من السريانية لم يكن لها من تأثير لو لم تصاحبها شروح الفلاسفة. أحس هؤلاء سريعاً بفراغ ترجماتهم، وافتقادها إلى الأهمية، وتصطدم بثقافة تفتقد إلى قاموسهم ولا تحتوي على فكرهم. لقد قاموا إذن، بواجب إغناء هذه الترجمات، أي إنتاج حرفي في الهامش لخطاب يتناوب معها ويعبد لها الطريق.

بمفاهيم أخرى، فإن الترجمة ليست نقلا على طريقة "ليبنتز"، ولا يمكن قطعا أن تأخذ على عاتقها خاصية كونية لأنه حتى ولو تواصل الأفراد فيما بينهم بمثل هذه الأداة، فإنهم يحتاجون بالضرورة إلى معرفة الالغوريتم (Algorithme) الذي يديرها! ليست الكلمات هي التي تتواصل ولكنها الأفكار، وهي في الغالب متفردة، وتبقى دائماً غريبة حتى ولو قلناها داخل اللغة المستقبلة. ليست الثقافات شفافة الواحدة للأخرى، كما أنه لا يكفي أبدا إلباس كاتب أجنبي ألوانا وطنية لكي يصبح من أهل البلد!.

على سبيل المثال، ليس هناك من صعوبة في جعل ديكارت يتعلم العربية. بل يمكننا القول والحالة هذه، أن

ديكارت يتكلم عربية رائعة[3]. لكن العسير، هو أن ندخل إلى ثقافة لا تلم بذلك، الميكانيزم وكذا النقدات البطيئة والصعبة التي أوجدتها وانتهت بتركها وتجاوزها. على نفس المنوال، ليس هناك صعوبة في ترجمة باشلار إلى العربية، الصعوبة تتجلى بالأساس في ترجمته بطريقة مفهومة، أي إعادة كل السياقات والجدالات العلمية التقنية والفلسفية الموجودة خلف الباشلارية والتي تمكن من فهمها، بدونها ستبقى مجرد إنتاج أجنبي. الأكثر صعوبة هو تطعيم ثقافة لم تعش ذلك، بحركة تاريخية بظلماتها وأنوارها. وكما رأى "هيغل" جيدا، فإن لكل شعب "فكره" وبالتالي لا يمكننا إدخال "فكر شعب" عند آخر دون جعله يعيش تاريخ هذا الفكر.

لهذا السبب فإن المؤلفات التي تسعى إلى التقديم، تكون فاعلة أكثر من مجرد الترجمات لأنها تجتهد قليلا أو كثيرا في إعادة هذه الحركة. وعليه يبقى التاريخ الشكل الذي يدل أكثر على مثل هذه الدراسات. أحد الجامعيين المصريين، وهو يتوخى إعطاء تاريخ للفلسفة اختار لعمله عنوانا أصبح مشهورا: قصة الفلسفة[4]. وبالفعل محكوم علينا في سياق كهذا، أن نحكي عن تاريخ وقائعي يطبق على المفاهيم

---

(3) ترجمتنا النقدية والشارحة لـ"خطاب المنهج". تونس، مكتبة لذة المعرفة 1987.

(4) ز.ن. محمود: قصة الفلسفة. القاهرة.

والأفكار. ولكن إذا كان فعلا بإمكان فلاسفة العلوم الاعتراض على أن يكون حقا للمفهوم تاريخ وربما لاشيء غير التاريخ، فإنهم بالتأكيد سيكتشفون أن مثل هذا التاريخ يبقى على أية حال شيئا مختلفا ما عن ذلك الذي يرتبط بـ"Alice"!

كيف يمكن إذن، لهذه الدراسات حول باشلار أن تجابه هذا التناقض: سرد تاريخ متداخل! كتابة تاريخ ينتمي في نفس الآن إلى المفهوم وكذا لـ "Alice"[(5)] ذلك ما يجب السعي إلى إبرازه. بطبيعة الحال، نستبعد الآن سرد هذا التاريخ، بل نسعى فقط إلى تقديم بعض عناصره وتيماته وربما إظهار درسه.

تجب الإشارة أولا، إلى أن عروض فلسفة باشلار يصاحبها بصفة عامة عرض طويل تقريبا حول التحولات الإبستمولوجية التي تعرفها الرياضيات والفيزياء المعاصرة. هذا العرض يكون في غالب الأحيان هو ذاته، ويتضمن بعض المعطيات حول الهندسات اللاإقليدية، وكذا نظرية النسبية ثم الارتياب في الميكانيكا الكوانطية، وثنائية المادة (النموذج الجسيمي والتموجي) وينتهي بتأمل في الحتمية واللاحتمية[(6)].

---

(5) يحيل الكاتب بالتأكيد هنا على الخيال بكل غرائبيته. (المترجم).

(6) محمد وقيدي، فلسفة المعرفة عند غاستون باشلار (بالعربية)، بيروت 1980، ص: 15-27. ومحمد عابد الجابري، دراسات ونصوص في الإبستمولوجيا المعاصرة (بالعربية)، بيروت 1976-1982. ثم

كل شيء يتم كما لو أن فلسفة باشلار كانت لا تنفصل بالتأكيد عن محتوى إيجابي، يشتغل كشرط لارتقائها وتطورها.

الحق يقال، علاوة على كون هذا الارتباط صحيح تاريخياً، فإنه تجب الإشارة إلى أن مثل هذا العرض مفيد في النطاق الذي ينزع فيه إلى تلقين جمهور ليس له مبادئ في العلوم. الذي يطرح الإشكال هو كون العرض بقدر ما هو بالضرورة تخطيطي فإنه يجازف بإعطاء فكرة مضطربة تقريبا عن الأسئلة النظرية والتي كما نعرف ذات تعقد كبير.

لكن على نفس المنوال فإن فلسفة باشلار، إذا صاحبها عرض حول العلم، فإنه يرافقها كذلك توضيح للسياق الفلسفي الذي نشأت فيه. الأسماء الواردة أكثر هي لـ: ميرسون وبرغسون وبرونشفيك[7]. هنا كذلك عروض بيانية أكثر، ننتهي معها إلى التعود كثيرا على النقد الباشلاري الموجه إلى هذه الأفكار وكذا مضمونها. تصبح الوضعية دراماتيكية أكثر، حينما يدرك القارئ من خلال بعض الفقرات أن باشلار لم يحكم سواء للمثالية أو الواقعية[8]. حكمه النهائي والذي فضلا عن ذلك، أكد عليه المؤلفون بإلحاح هو

= عبد السلام بنعبد العالي وسالم يفوت، درس الإبستمولوجيا (بالعربية) 1988، الدار البيضاء.

(7) وقيدي، م.ن.، ص: 38-39.

(8) بنعبد العالي ويفوت، م.ن. 26-27.

أنه فيلسوف بولميكي[9] منشغل أكثر بانتقاد الآخرين عوض تمثل أفكاره الخاصة، هؤلاء الآخرون يدعي بأنه قد "تجاوزهم" وأدمجهم في فكره. وبالفعل، فإن باشلار يقدم صورة فيلسوف "التجاوز"، تجاوز التباعد بين العلم والفلسفة[10]. وكذلك التباعدات داخل الفلسفة ذاتها وخاصة تلك التي بين الواقعية والمثالية[11].

لكن يظهر بأن التيمة التي تستحوذ عليه أكثر من أي شيء آخر هي مسألة إعادة تعريفه للواقع، والأطروحة الباشلارية فيما يخص التعارض بين الواقع المعطى والواقع المؤسس عولجت بصفة عامة بنوع من الاحتراس، تركز حول مسألة التباعد بل والتعارض بين "واقع العلم" ثم الواقع المألوف[12] وبأن العلم ينتج أدواته الخاصة[13]. أشياء تم إبداعها أدبيا بحيث أنها لا تبرز إلا أساليب مصطنعة بالعلم ذاته[14]. الاهتمام بهذه التيمة يحمل صبغة إيديولوجية واضحة. الأمر يتعلق من جهة بالتأكيد على نسبية وأهمية هذا الواقع

(9) وقيدي، م.ن.، ص: 108. يفوت، مفهوم الواقع في التفكير العلمي المعاصر (بالعربية)، الدار البيضاء 110-111.

(10) وقيدي/ م.ن... 32-33.

(11) يفوت، م.ن.، 111. بنعبد العالي ويفوت م.ن. 37.

(12) يفوت، مفهوم الواقع ...، 112-115.

(13) بنعبد العالي ويفوت، م.ن. 40.

(14) نفسه، 27-28.

اليومي الذي يستحوذ على العقول ويمسك بها تحت إدارته. ومن جهة أخرى، التأكيد على أن الوظيفة الإبداعية ليست متعلقة بقوى متعالية ولكن يمكنها في حالات معينة أن تكون في يد الإنسان. التركيز على هذه التيمة إذن، يحمل بعدا تربويا وتحريريا واضحين. ولا يمكننا التحسر إلا على شيء: هو أن التيمة لم تتطور لذاتها انطلاقا من أدلة وأمثلة أكثر سهولة من تلك التي وظفت بشكل عام.

أطروحة إنتاج الواقع[15] مرتبطة بأخرى، مثل المتعلقة بتعارض الواقع المعطى مع الواقع الذي يتم بناؤه[16]، وكذا تعددية الواقع[17]، تنتهي إلى أن تطرح بوضوح مسألة العلاقة بين الواقعي والعقلاني[18]. هكذا يظهر فكر باشلار مثل حلم واقع عقلاني كليا أو معقلن تماما. التركيز على هذه التيمة، يبدو وكأنه يشتغل كطموح أكثر من كونه مجرد إثبات علمي.

مسألة لازمة لا تكف إذن، عن الظهور: طرد اللاعقلانية. المقاطع الشهيرة والتي أكد فيها باشلار بأن الحقيقة المبرهن عليها نظريا وتجريبيا هي "سد" ضد اللاعقلانية، استشهد بها

---

(15) يفوت، فلسفة العلم والعقلانية المعاصرة (بالعربية)، بيروت 96، 103، 108.

(16) نفسه، 86.

(17) يفوت، مفهوم الواقع...، 332-333.

(18) يفوت، فلسفة العلم ...، 88.

وعلق عليها بحماس[19] سلطة العلم في محاربة اللاعقلانية وإبعادها عن المناطق المتاخمة للفكر، أكد عليها بنوع من الافتتان. مع ذلك، فإن المؤلفين يظلون يقظين فيما يخص الإمكانية المتاحة لمثل هذه الأطروحات، من الانحلال داخل نوع من الواقعية الوضعية. مما يدفعهم إلى التركيز على سلطة العلم المتخيلة وعلى كون أن الممكن لا يتحقق بالضرورة[20].

الصلة بالوضعية وجهة نظر أخرى تستحضر في الغالب وتناقش، وتندرج في إطار تحديد مواقع باشلار المذهبية. نؤكد في هذا الإطار على الخاصية "البوليميكية" لفلسفته[21]. لكننا في الوقت نفسه، نبحث روائز أوضاعه حيال المذاهب التقليدية. والحال أنه من العرضي جدا الإشارة إلى أن هذه المسألة تطرح وتجد بصفة عامة حلها، كما قلنا آنفاً، في مفاهيم "التجاوز". لم نفهم جيدا في الغالب التماثل الذي أقامه باشلار نفسه بين العقلانية القديمة والمادية المحدودة. ذلك أنه إذا ظهر التقليد الأول مع بعض الكتاب مثل برغسون أو برونشفيك، أو مذاهب مثل الظاهراتية، فإن الثاني يظل أساسا في الهامش. نندهش كون باشلار وجد ممثلين لهذا

---

(19) نعبد العالي ويفوت، درس الإبستمولوجيا، 72 وقيدي، فلسفة المعرفة ...، 69.

(20) يفوت، مفهوم الواقع ...، 194-195.

(21) وقيدي، فلسفة المعرفة، 108، يفوت، فلسفة العلم، 168.

التيار في التجريبية، بل وحتى في فكر ميرسون (Meyerson)، في حين أنه حريص على تجنب الحديث عن المادية الحقيقية للأزمنة الجديدة: الماركسية[22].

حقا، هنا شيء كبير يتكرر في الغالب: صمت باشلار فيما يخص المادية الدياليكتيكية. مسألة ستتطور إلى غاية تقديم أرضية لنقد الباشلارية تكون في بعض الأحيان قاسية. نقد يستعيد أفكار "ميشيل فادي"[23] أو "دومينيك لوكور"[24]. إجمالا، يجد المؤلفون بأن وضعية باشلار تتميز بنوع من اللا تماثل. فبالرغم من تصريحاته وكذا تعريفه لإبستمولوجيته "كعقلانية تطبيقية" أو بالعكس كـ"مادية عقلانية" فإن باشلار اختار في الواقع فريق المثاليين مفضلا منهجا "يتدرج من العقل إلى التجربة"[25].

إضافة إلى ذلك، فإن هذا اللاتوازن يصبح بديهيا أكثر حينما نفحص محتوى الانتقادات الموجهة من قبله إلى هذا المذهب أو ذاك. فهو لا ينتقد المثالية إلا لكي يجعلها تتطور ويدفع بها تجاه عقلانية متجددة على ضوء العلوم الجديدة. ثم، ألم يبرهن في الأخير عن نوع من التقدير تجاه

(22) وفيدي، م.ن. 102.
(23) ميشيل فادي، باشلار أو المثالية الإبستمولوجية الجديدة، باريس. انظر بشكل خاص 48 و237.
(24) دومنيك لوكور، باشلار الليل والنهار، باريس، 1974.
(25) نفسه، ص 237.

برونشفيك[26]؟. في المقابل، انتقاده للمادية يمزج "التفسير المادي لشروط وجود المعرفة العلمية بالقيمة النظرية لهذه المعرفة"[27]. يجب أن نفهم بذلك أن ما يؤخذ على باشلار، كونه لم يعتمد الأطروحات الماركسية المتعلقة بتطور البنية العليا المتطابقة، أو كونها في جميع الأحوال "ترتبط جدليا" مع البنية التحتية.

هذه المؤاخذة تصبح أحيانا قاسية جدا، ويمكن أن تتحول بسهولة إلى كشف عن "التناقضات الداخلية"[28] الباشلارية. تناقضات تتأتى بشكل خاص من كونه يتبنى نفس الفلاسفة التقليديين الذين انتقدهم[29]. ليس من النادر في الواقع، أن نعثر على انتقادات للإبستمولوجيا الباشلارية باعتبارها ايديولوجية مقنعة[30]. أو كإديولوجية تريد الانتقال إلى فلسفة للحقيقة[31]، بل وكفلسفة بوليمكية وسالبة، تكتفي بانتقاد الآخرين دون تقديم أطروحات جديدة[32].

على العموم، وحتى نستعيد عبارة لـ فرانسوا داغوني فإن

---

(26) وقيدي، م.س.، 74-75.

(27) نفسه، 48.

(28) نفسه، ص 105.

(29) يفوت، فلسفة العلم، 165.

(30) وقيدي، م.س.، 105.

(31) يفوت، فلسفة العلم، 167.

(32) نفسه، 168.

قراءة باشلار تستوجب مثل الباشلارية ذاتها، ظلماتها وكذا أنوارها. وبالفعل، فحينما نربط الباشلارية بالفلاسفة التقليديين، سواء فلاسفة الماضي أو الذين يواصلونه فإنها تظهر كفكر متحرر. بالمقابل حينما نرجعها إلى أفكار الحاضر وبشكل خاص المادية الدياليكتيكية، تبدو الباشلارية بمثابة فكر ورع ورجعي! كما لو أن العقلانية الدياليكتيكية، لم تكن دياليكيتكية بما يكفي! بحيث أننا نضطر إلى التساؤل عما إذا كان غياب هذه "الجدلية" يوجد فعليا في نصوص المؤلف أو في قراءتنا لها. أو كذلك، ألا يجب افتراض بأن هذه القراءة تصطدم بدورها بنوع من العائق الإيديولوجي يمنع وصولها إلى معرفة أصالة كل فكر وخاصيته، فضلاً عن صعوباته وإخفاقاته الذاتية.

مفهومان يستحقان بسرعة المقاربة وذلك بإتمام إعادة النظر في هذا الأدب المكتوب بالعربية: الجدلية والإيديولوجية.

حقا، الدراسات المخصصة للدياليكتيك ليست بلا أهمية؛ بل تشغل ـ على العكس من ذلك ـ مكانة مهمة في الأدب الإبستمولوجي. إلا أن المثير، هو كون المفهوم في الغالب تم تشويهه وتحريفه. في جميع الأحوال، فإن الدياليكتيك الذي تم النظر إليه كنوع من الفكر الإنتقائي، يصر على تجميع ليس الأفكار المتناقضة ولكن الرؤى المتباعدة وأن يجعل منها

"تركيبا"[33]. وقد وجد النموذج في "مبدإ التكاملية" لـ"نيلز بوهر"، ولكن بقدر ما يطبق على نماذج فلسفية متعارضة تقليديا كالعقلانية والتجريبية، الماقبلي والمابعدي، الحسي والمجرد، النظرية والتطبيق، الرياضيات والتجربة، إلخ.... يعرف الدياليكتيك إذن، كـ"موقف إبستمولوجي وسط" بين نقيضين أو "كحوار" بين شريكين، أو أخيرا كـ"تكاملية" بين وجهتي نظر متباعدتين. وباستحضاره لوجهة نظر أخرى لم يتم التأكد منها قط، نرى فيها دياليكتيكا خاصا بتاريخ العلوم والذي يعبر عن غياب لكل حقيقة مكتملة وبالتالي مبدأ مراجعة كل حقيقة علمية، أو صلة القديم بالحديث في إطار هذا التاريخ ذاته[34].

نستخلص ربما حينئذ الحكم بوضوح: ليس الدياليكتيك الباشلاري دياليكتيكاً حقيقياً، مادام أنه لا يقوم إلا على النظري، أي على المعرفة وليس "حقيقة الشيء" التي هي موضوع لهذه المعرفة. لقد افتقد باشلار الدياليكتيك الحقيقي: ذلك الذي يقوم في إطار الواقع ويدير التعارضات التي تقوم داخله[35].

من جهة أخرى، نعثر تقريبا على نفس المعنى الممنوح

---

(33) وفيدي، م.ن.، ص 150.

(34) نفسه، 148-158.

(35) نفسه، 151-159.

للدياليكتيك. يعود مصطلح "حوار" باستمرار، يتعقبه كذلك "التفاعل" و"مراجعة" الحقائق القائمة آنفا و"اتساع" حقائق الأشياء[36]. كذلك، نفس المؤاخذة تتبلور ثانية حتى ولو أخذت شكل نقد كلي مادام أن مشروع باشلار الفلسفي حكم عليه بالإخفاق. لقد كان باشلار في الواقع ضحية أوهامه الخاصة، لأنه بتوخيه إيجاد "تطابق بين العلم والفلسفة" فإنه سيبقى في حدود مجرد مشروع، وقد "استنفد جهوده" في سجالات عميقة وصراعات لانهائية[37].

كل ذلك يظهر الإختزالية التي خضع لها مفهوم الدياليكتيك والسذاجة التي عولج بها، سذاجة تصدر عن التموضع الذي يخضع له المؤلفون وهم يقاربون هذا المفهوم، تموضع يرتكز على استحضار تطبيقاته المحددة ودلالاته الجزئية، دون الاكتراث بحمولته الاستكشافية العامة. نواته الفلسفية المختفية إذن، وبشكل خاص بعده الدينامي والذي يمكن من إدراك تشكل المفاهيم في صيرورتها وانطلاقا من تحولها ثم اهتداء الواحدة منها إلى الأخرى.

لقد توخينا إذن، التفكير في كون الشارحين العرب لباشلار، ظلوا بدورهم ضحايا لما يمكن تسميته بعائق

---

(36) يفوت، فلسفة العلم، 123-126.

(37) نفسه، 159-162.

إبستمولوجي، والذي قد يأخذ شكل حكم مسبق أو فكرة ثابتة، يبحثون على إلصاقها بالنصوص مما يغيب عنهم معناها الحقيقي. بمفاهيم أخرى، كل شيء يقوم كما لو أن المادية الدياليكتيكية تشتغل مثل ستار يحجب الفهم الحقيقي لحمولة الدياليكتيك العقلاني.

ما يؤكد ذلك، هو محاولات "استعادة" الباشلارية من بعض الأوجه عبر رجوع قوي إلى الإبستمولوجية الماركسية وبشكل خاص ألتوسير[38]، أو من خلال تقريب إضطراري بين الباشلارية والماركسية[39]. هذه المحاولة الأخيرة تنتهي بصفة عامة إلى اكتشاف الصمت الثنائي -دلالة ثقيلة-لباشلار فيما يخص المادية الدياليكتيكية[40] ثم المادية الدياليكتيكية حيال لباشلار. هذا الصمت سيتحول إلى "أزمة"[41]، وسيستمر إلى لحظة نشر أعمال ألتوسير. إلى غاية هنا، فإن

(38) نفسه، ص: 62.

(39) وقيدي، العلوم الإنسانية والإيديولوجية (بالعربية). انظر بشكل خاص فصل: "باشلار والمادية التاريخية"، بيروت، 1983. 115-128.

(40) باستثناء بعض التصريحات الملتبسة كثيرا والتي تقود إلى تأويل متعدد في نفس الآن، مثل التأكيد الشهير المتعلق بالخيمياء في "المادية العقلانية"، 1972.

(41) وقيدي، العلوم الإنسانية ...، 116-117، والذي يستعيد أطروحات "فادي": "باشلار أو المثالية الإبستمولوجية الجديدة". و"لوكور: باشلار، النهار والليل"، 15.

العلاقة بين الفكرين تميزت بارتياب متبادل في الواقع، يعود مبرره الأساسي إلى انتظام باشلار مع مواقف المثالية، حتى ولو وصف بكونه عقلانيا ودياليكتيكيا. ألتوسير إذن، هو الذي قام بإرساء جسور بين هذين الفكرين، وذلك باستخلاصه لـ"نواة" العقلانية الباشلارية، مع العلم أن "القطيعة" أصبحت تحت ريشته "قطيعة إبستمولوجية" ـ كما لو أنه يعمل على إظهار خاصيتها الجذرية الجازمة ـ بقدر تطبيقها على عمل ماركس.

بذلك شغل ألتوسير "وضعا استراتيجيا" داخل تطور العلاقات بين الإبستمولوجية والماركسية في الإطار الذي أدار فيه بخطوة واحدة تأكيداتهما. وبالفعل، كان عليه إثبات الماركسية وإظهار علميتها وذلك بتوظيفها كمفهوم يتأتى من حقل التأمل في العلوم. في مقابل ذلك، كان عليه تأكيد الإبستمولوجية، وبأنها علميا إجرائية ومقبولة إيديولوجيا. نستغرب حينئذ، كون هذا الالتقاء لم يكن مبكرا، مادام أن أغلب المفاهيم مشتركة بين الفكرين. كما يتوحدان إضافة إلى ذلك، ليس فقط في اعتقاد مشترك بالمستقبل، ولكن كذلك في نفس النموذج المنفصل لصيرورته.

انطلاقا من ذلك، يظهر بأن باشلار أخطأ مادام أن المادية الدياليكتيكية تعمم نموذجا كهذا وتجعل منه طريقة لوجود الأفكار والأشياء، اختزله باشلار إلى المقام الأول

وألغى التفكير في الباقي. ليظهر كماركسي محتشم، ماركسي لم يذهب إلى أقصى أفكاره[42].

لقد تبنى الأدب الفلسفي المعبر بالعربية بخصوص باشلار موقفا لا يفتقد، لا للاختزالية ولا للازدواجية. من جهة، اختزل الباشلارية إلى بعض المفاهيم المعزولة عن سياقها، وبالتالي لا تدرك غنى هذا الفكر وعمقه. ومن جهة أخرى، فإن هذا الفكر أو بالأحرى ما بقي منه لم تتم أبدا مقاربته في ذاته، ولكن دائما من خلال وجهة نظر غريبة عنه. لذلك تمزق بين محورين متعارضين، يظهر أحدهما كنقطة انطلاقه: يتعلق الأمر هنا بما يجب "تجاوزه"، في حين أن الآخر يشتغل وكأنه وجهة نظره المتوخاة: حيث سعى للوصول إليها، لكنه أخفق في ذلك. بناء على المحور الأول، فإنه سيشتغل كفكر متحرر، في حين وانطلاقا من المحور الثاني، فإنه بالأحرى سيظهر كموضع لكبت كبير.

لم يكن الوضع نفسه مع الأدب الفلسفي العربي المكتوب بالفرنسية، حيث نجد أنفسنا في حقل مألوف وبالتالي نتوخى الذهاب إلى عمق الأشياء. بما أن هذا الأدب لا يتوجه إلى جمهور واسع، فإنه يتخلص بالتالي من إرغامات التبسيط

---

(42) يفوت، فلسفة العلم، 168: «لقد وصل باشلار إلى عتبة القضايا الحقيقية: مثل العلاقات بين الممارسة العلمية والتاريخية وكذا الاجتماعية، لكن موقفه المتناقض من الفلسفة، كما قال لوكور حال بينه وبين اقتحامها. إنها قضايا ترتبط بالتاريخ وبالمادية التاريخية...».

وكذا ضيق القنوات التي تنهض بتناوله وتداوله. مكتوب من قبل مختصين إلى مختصين، فإنه يتناول القضايا في أصلها وتطوير وجهات نظر تقنية. لن نكتفي إلا بمثال واحد، لكنه ينوب كفاية عن الباقي[43].

بما أن الأمر يتعلق بأطروحات، فإننا سندافع في هذه الحالة الخاصة عن وجهة نظر ثنائية: يتعلق الأمر في الواقع، بإظهار أن فكر باشلار يقوم على ثنائية: يتوخى مماثلة العلم بالنشاط الشعري، ثم القصيدة بالنشاط العلمي؛ أو بشكل أدق فإن المسألة تتعلق بإظهار كيفية نجاح باشلار في تأسيس "شعرية للعلم" وكذا "علم للقصيدة"[44].

منذ البداية، نسعى إلى التأكيد على أن معالجة قضية المعرفة لا تقوم فقط على وجهة نظر وضعية صورية ومنطقية ولكن على العكس وجهة نظر سيكولوجية وميتافيزيقية. لا يتعلق الأمر بتحديد حقائق، ولكن باستحضار قيم. فلسفة العلوم، نشاط للخيال حتى ولو أدخلت الدياليكتيك. الخيال يبدع، ثم بعد ذلك يلامس القواعد وكذا الصياغة المنطقية والرياضية من أجل الضبط. تبين جدلية الخطإ والحقيقة دور

(43) نشير هنا إلى أطروحة رضا عزوز: "مفهوم الدياليكتيك في فلسفة باشلار". والتي ناقشها بتونس في 4 نيسان/أبريل 1987. تحت إشراف الأستاذ هدب فيرجوت. تحية بهذه المناسبة، إلى ذكرى الفقيد المشرف على هذا العمل.

(44) عزوز، مفهوم الدياليكتيك، ص: 169.

الخيال الأساسي في المعرفة العلمية. يقوم الفكر العلمي بتطهير المعرفة وتخليصها من خطإ الاعتقادات الذاتية. التحليل النفسي بمثابة تطهير حقيقي.

حتى في أصلها، فإن المعرفة مزدوجة: تجريبية وعقلانية في الآن ذاته. ركز باشلار على دور هذه الرياضيات المباشرة التي تشتغل داخل "الفيزياء العفوية" للحس المشترك، على مستوى الإدراك أو اللغة الطبيعية. إن لغتنا اليومية هي قبل ذلك حاملة لرياضيات "غير مصقولة"، كما هو الشأن حينما نعبر بصفة عامة عن النسب والعلاقات[45]. فالنسبة مثلا هي أصل المعادلات التفاضلية والتي تخضع لها الفيزياء المعاصرة.

تطبيق الرياضيات ليس إلا أداة للوصف. وتدين بنجاحها إلى السهولة التي توفرها لنا من أجل القيام ببيانات. لائحة "مندليف" (Mendeleiv) نموذج للنجاح في التمثل. والحال أن هذا التمثل عمل للخيال أولا، ثم سيتطهر بالتحليل النفسي، وسيقعد ويأخذ طابعا أكسيوماتيكيا مع المنطق الرياضي.

هذا التطهير يستدعي جدلية النقي والملوث ويحدد العوائق الإبستمولوجية. كما أنه يجرب المادة، ويقربها من أحلامنا وهلوساتنا مادام أنها تخضع مثلنا لنفس الأنماط

---

(45) نفسه، ص: 44-46.

المثالية (Archétypes). فهي تبحث عن التطهر من القذارات بنفس الطريقة التي يتحرر بها شخص من المعاش (Vécu)[46].

نخلص من هذا إلى أن الفكر العقلاني ينبني على جوهر سيكولوجي قلق وبدائي لنفس تستسلم إلى أحلامها البدائية ما إن تنفصل عن صرامة النشاط العلمي لكي تستريح. مهارة إذن، في ملاحقة الخطإ هنا أيضا، وبالخصوص من خلال فجوات الواقع والحلم، العقلاني والأسطوري، العلم والقصيدة. ليست الدراسة العلمية للقصيدة بتسلية طريفة وغير مفيدة، بل على العكس إن ذلك يمثل عملا رصينا وتكملة لعمل الإبستمولوجي. تدرس الوهمي حتى تقف على كيفيات إنتاج الحقيقة. لذلك فهي من بعض النواحي الإبستمولوجية الحقيقية: علم العلوم. معالجة للعقل.

من الضروري الاهتمام بحلم اليقظة لأنه يمثل "الحدود الأخيرة لعقلنا"[47]، هنا تتشكل "العقد الثقافية" مثل عقدة: نوفاليس (Novalis) أو بروميثوس (Prométhée)، هذه "المواقف العفوية تحكم عمل التأمل ذاته". يجب الوصول هنا كذلك إلى عرض "نظريات" بل وحتى إظهار "النظرية الجوهرية للقصيدة". هذه "المنهجية البنائية" المطبقة على

---

(46) عزوز، مفهوم الديالكتيك، ص: 50-51.

(47) غاستون باشلار، التحليل النفسي للنار، 181.

الصور، يجب أن تنتهي بأن تكشف داخلها على حتمية ما، ونوع من "التماسك" تشكله "الأنماط المثالية" لحياتنا الغريزية، والتي تظهر الخاصية البيولوجية للخيال وكذا التطابق بين أساطيرنا والتصرفات الحيوانية[48]. إن "تحليلا نفسيا ماديا" جيدا، يجب أن يكون في مستوى الكشف لنا عن "اللاوعي المادي" الذي يتموضع خلف "حتمية الخيال" حيث ينظم الصور ويعطيها قوانينها.

كما لاحظ فرانسوا داغوني[49] فإن الشعري، يتأسس داخل حدود تداخل الذوات. حلم اليقظة، صلة بالآخرين والعالم، تجربة للسعادة، يقود الكون إلى صورة كونية. مثلا: النار موضوع للحلم. تعطى صورة النار كـ"لوغوس للعالم". هذه الصورة، وأخرى كثيرة مماثلة لها تمكننا من أن "نسكن العالم" ونجد فيه سعادتنا. عالم متخيل هو دائما عالم للسعادة. والحال ألا يلاحق العلم صورة كهاته، أي تلك المرتبطة بحلم "استوطن العالم" وذلك بالسيادة عليه؟.

تلك إذن، كيفية تشكل الصلات بين لحظتي عمل باشلار، صلات لم نشر إليها إلا بشكل تلميحي وبأن هذه التحاليل الأنيقة تعود إلى دقتها وتلاحمها. يقتضي الأمر هنا القيام بدور فيلسوف، ودراسة الفكر في ذاته ولذاته، توخيا

---

(48) عزوز، م.ن.، 78.

(49) المجلة الفلسفية الدولية، العدد 150، 1984، ص: 255.

لإظهار انسجامه. ولكن كذلك في أفق التواصل معه، وأن نجد من خلاله فرصة للتفلسف.

مع ذلك، هل هناك حاجة إلى ملاحظة، أن هذا التماثل السعيد ليس إلا حضورا لخطاب في ذاته، يتطور داخل الهوية ويتمرأى إن صح القول صورته الخاصة، كما أنه لم يصطدم بعد مع التجربة المؤلمة للاستلاب والآخرية. مستفيد أيضا من صمت المعبد، فإنه يبتهج لبعض الوقت مع سعادة "النفس الجميلة" في انتظار تمزقات "الوعي الشقي". ألا تأتي دائما الفلسفة متأخرة؟ ثم ألا تحلق بومة "منيرف" (Minerve) عند الشفق؟

نستنتج مع ذلك بأسلوب واقعي: أن الذهاب يعني الموت قليلا، شيء يصدق على الجسد والروح. ويجب قبول المخاطر وتحملها، «أخذ ثياب رهبنة البلد الذي نتوجه إليه، وفي الوقت ذاته، نحتفظ بالذي نملك»[50]، أن تكون آخر من بين الآخرين، ثم ذاتك بين ذواتهم. في انتظار أن تصير ذاتا وآخر في الآن ذاته بالنسبة للجميع. أليس ذلك ثمنا يكتسبه الكوني؟

---

(50) ديدرو: *Supplément au voyage de Bouguinville*، غارني، 515.

القسم الثاني

قراءات

* التحليل النفسي للنار: غاستون باشلار.
* غاستون باشلار، عقلاني رومانسي: جون ليبيس/باسكال نوفل

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://twitter.com/SourAlAzbakya
https://www.facebook.com/books4all.net

التحليل النفسي للنار: أو البحث عن حدود جديدة للمنهج الباشلاري[1]

استند النقد الباشلاري لقراءة الإبداع الأدبي في مرحلة أولى على اكتشافات التحليل النفسي، وكان ذلك في البدايات الأولى لاهتمامات باشلار الإبداعية وبداية مشروعه لدراسة العناصر،حيث حاول البدء بإزالة كل التصورات الخاطئة التي تغلف رؤيتنا للنار؛ وفي سبيل ذلك سيحاول القيام بتحليل نفسي لمجموع المعارف التي شكلناها حيال النار وتحديد العوائق الابستمولوجية التي شكلت دائما حاجزا أمام بلورة تصورات موضوعية فيما يخص هذه النار. ثقافة ومنظومة العقد والعوائق ستمكننا إذن، من نسج معرفة حقيقية وصحيحة، تفصلنا بشكل كلي عن الماضي غير العلمي لكل التاريخ المعرفي للنار، وبمعنى غير مباشر تجاوز الرؤى

(1) Gaston Bachelard: *La psychanalyse du feu*, édition Gallimard 1949.

والأحاسيس الذاتية المستندة إلى أحكام قبلية خاطئة. فما هي إذن، أهم الأطروحات المفهومية التي جاء بها كتابه "التحليل النفسي للنار"؟ والذي يشكل في حقيقة الأمر بداية تشكل ملامح القطيعة بين أبحاثه في العقل العلمي، وتلك التي ستتوخى الإنسان الحالم والشاعري.

لاشك أن الوقوف أمام الأشياء والمكونات الكوسمولوجية للعالم، ومن خلال بعدي الدهشة والإعجاب اللذين تثيرهما هذه الأشياء تجاه الإنسان، فإن ذلك يعمل على انتفاء الموضوعية والفصل بين الذات والموضوع، كأساس لكل موضوعية علمية. إن باشلار يؤكد أنه لا يمكن تحقيق ماهية العلمي من خلال مبدأ الموضوعية إلا بالمعطيات المعرفية التالية:

1 - رفض المعطى أو الشيء الفوري.

2- القطع مع الإغراء الذي يحدثه الاختيار الأول.

3- العمل على تجاوز، الأفكار التي تولد في سياق الملاحظة الأولى والقطع معها.

لأن من أهم أسس الموضوعية، التشكيك في القيمة المعرفية لهذا الاتصال الأول وبالتالي عليها أن تنتقد كل شيء:

1-الإحساس.

2-الحس المشترك.

3-الممارسة الاعتيادية.

4-الإتيمولوجيا.

لهذا على الفهم الموضوعي، أن يتأسس على عملية فكرية يمكن أن تأخذ طابع السخرية والتهكم وكذا التيقظ والاحتراس. ذلك يفترض منا التجرد من القيم والأحاسيس الذاتية حتى ندرك حقيقة الأشياء. يقول باشلار في هذا السياق: إن «محاور القصيدة والعلم متعارضة. كل ما تطمح له الفلسفة هو جعلهما متكاملين وتوحيدهما باعتبارهما متناقضين جدا. يجب إذن؛ مقابلة الفكر الشعري الصريح مع الفكر العلمي الصامت، والذي بالنسبة إليه فإن النفور السابق احتراس سليم».(2)

يؤكد باشلار بأن النار لم تتم دراستها بشكل موضوعي أبداً. أفق لم يتحقق، لأن الإثارة التي تحدثها النار تأخذ دائما حتى بالعقول الأكثر استقامة وصرامة، وبالتالي تشتغل داخلها النوازع والأحاسيس الشعرية وكذا أحلام اليقظة. وبالتالي من أجل الوقوف والكشف عن ذلك، من الضروري القيام بتحليل نفسي للنار، وبالضبط إعادة تحليل اعتقاداتنا التاريخية حيال النار.

هذا الموقف المعرفي من النار أثر بشكل مباشر في الإنتاج النظري المتعلق بها، لذلك فإن العلم المعاصر ـ حسب باشلار ـ لم يلتفت كثيرا إلى ظاهرة النار. وبالتالي فإن

---

(2) Ibid, page: 12.

كتب الكيمياء لم تخصص إلا فصولا قصيرة جدا ومختزلة للنار. ويضيف باشلار، بأنه حينما يطرح التساؤل عن ماهية النار؟ على المثقفين بل وحتى العلماء، فإنه في حقيقة الأمر لا نحصل إلا على أجوبة عامة، تكون في الغالب تحصيل حاصل وتكرر بشكل لاواع النظريات الفلسفية القديمة. السبب في ذلك يعود إلى أن المسألة لا تطرح في سياقها الموضوعي السليم، بل يختلط الموقف المعرفي بحدوس واستلهامات ذاتية. لذلك فإن النتائج تكون متسرعة وفورية وتفتقد إلى شروط الفكر العلمي الصحيح. إن العناصر القديمة للتفكير البدائي لم يتم تجاوزها مع تشكل الفكر العلمي المعاصر، بل أن العالم نفسه لا يكون في حصن من هذه التقويمات البدائية والأولية. يقول باشلار بأن كتابه حول النار يستهدف: «تخليص الفكر من غبطاته، وكذا النرجسية التي تعطيها له البداهة الأولى، وتمكينه من يقينيات أخرى غير التملك؛ ثمة قوى أخرى في الاعتقاد غير الهمة والحماسة. باختصار، براهين لن تكون شعلا فقط»[3].

أعلن باشلار منذ مقدمة الكتاب، أن هذا العمل يقدم نموذجا عن التحليل النفسي الذي يتوخاه، وهو في نظره مفيد وضروري لكل الدراسات الموضوعية. إنه في حقيقة الأمر توضيح وتبيان لبعض القضايا التي طرحها قبل ذلك في كتابه

(3) Ibid, page: 16.

"تشكل الفكر العلمي: مساهمة في تحليل نفسي للمعرفة الموضوعية"[4]. التحليل النفسي للفكر العلمي، يمكن في حقيقة الأمر من الكشف عن الإغواءات والإثارات الأولى، وهي البنية الفكرية التي تعمل على تضليله من أجل الكشف عن الحقيقة الموضوعية، لذلك يدعو باشلار إلى تبني الخطوات البيداغوجية المعرفية التالية: «من الضروري أن يثابر كل واحد منا على تقويض اعتقاداته الذاتية غير المنتقدة، وأن يتعود على التخلص من صلابة عادات الفكر التي تشكلت بتأثير من التجارب المألوفة. وعلى كل واحد منا كذلك، أن يبدد بعناية أكثر مخاوفه، "مجاملاته" ومراعاته للحدوس الأولى»[5]. بمعنى آخر، دون هذه القدرة الذاتية على تجاوز منظومة الأحكام الذاتية والماقبلية التي تؤسسها الثقافة الاجتماعية والفكر المهيمن، فلا يمكننا إدراك هذا الموقف الموضوعي الذي يمكننا فعلا من الوصول إلى حقيقة الشيء.

بخلاف العناصر الكوسمولوجية الأخرى، فإن النار تشكل عنصرا بإمكانه تقديم تفسيرات مختلفة، بحسب تعدد واختلاف حقول ومجالات الاشتغال الإنساني.

يمكن أن تحمل النار تعددا قيميا يعطيها هذه القدرة على

---

(4) G. Bachelard: *La formation de l'esprit scientifique: contribution à une psychanalyse de la connaissance objective*. vrin .paris , 1938.

(5) *la psychanalyse du feu*, page: 18.

إظهار القيمة ونقيضها في نفس الآن؛ فهي: حميمية وكونية، تضيء وتحرق، موقد وقيامة، علاج وحريق... يلامس باشلار ذلك بقوله: «تقدم النار والحرارة وسائل للتفسير في الميادين الأكثر تنوعاً، إنهما بالنسبة لنا فرصة لذكريات خالدة، وتجارب بسيطة وحاسمة. النار إذن ظاهرة متميزة، يمكنها تفسير كل شيء. إذا كان كل ما يتغير ببطء تفسره الحياة، فإن الذي يتغير بسرعة يفسر بالنار، النار هي الحي جدا. إنها حميمية وكونية تعيش في قلبنا كما تعيش في السماء. ومن بين كل الظواهر، فإنها حقاً هي الوحيدة التي يمكنها الحصول أيضاً وبشكل واضح على القيمتين المتعارضتين: الخير والشر»[6].

إن ظاهرة بهذا الحجم لا يمكن إلا أن تكون مثار تفسيرات ذاتية أكثر منها عقلية، ومرتبطة باستيهامات وخيالات. من هنا تظهر القيمة النظرية لدعوة باشلار، والمتمثلة في تبني رؤية موضوعية حتى يتم بالتالي الكشف عن هذه الأرضية والبينة اللاعقلية التي تحكم مفاهيمنا في أكثر الأحيان، وتعكس آثار "التجربة الطفولية" وامتداداتها داخل التجربة العلمية، شيء يحتم علينا استحضار مفهوم "لاوعي الفكر العملي".

ولا شك انه من نتائج ذلك، مقاربة النار بحمولة معرفية

(6) Ibid , p: 23.

تستمد مقوماتها اكثر من المنظومة الاجتماعية والرؤى التي تأسست داخل السياق الاجتماعي، فما نعرفه عن النار مرتبط في مجمله بالتقديرات القائمة، مما يجيز إمكانية القول بأن الخوف من النار أو التقدير أو الاحترام هو في أساسه موقف تحكمه خلفية اجتماعية أكثر منه استنتاج طبيعي.

مجموع هذه المنظومة وضعه باشلار تحت اسم عقدة "بروميثوس" حيث تكون الموانع الاجتماعية، القاعدة الأساسية التي تحكم موقفنا من النار، يقول في هذا الإطار: «إذا اقتربت يد الطفل من النار، فإن والده يضربه على أصابعه بمسطرة. النار تصفع دون أن تكون في حاجة إلى أن تحرق. أن تكون هذه النار شعلة أو حرارة، مصباحا أو موقدا، فإن انتباه الأباء هو نفسه. النار في الأصل موضوع للمنع العام، من هنا هذه الخلاصة: المنع الاجتماعي هو معرفتنا العامة الأولى بالنار، ما نعرفه أولاً، عن هذه النار، هو أنه لا يجب لمسها»[7]. ويضيف موضحا الطبيعة المعرفية لهذه العقدة قائلا: «نقترح إذن، بأن يصنف تحت اسم عقدة بروميثوس كل الميول التي تدفعنا إلى أن نعرف قدر آبائنا واكثر منهم، وعلى نفس مستوى أساتذتنا بل واكثر منهم»[8].

لقد قارب التحليل النفسي الكلاسيكي أحلام النار بشكل

(7) Ibid , p: 29.

(8) Ibid , p: 30.

مستفيض، وكانت تحليلاته تأخذ بالتأويل الجنسي. باشلار يدعو إلى تعويض دراسة الأحلام بدراسة حلم اليقظة (La reverie). وبالضبط في هذا الكتاب يتوخى القيام بدارسة حلم اليقظة أمام النار، موضحا في هذا السياق أوجه الاختلاف المعرفي والأنطولوجي بين الحلم وحلم اليقظة بقوله: «يسير الحلم (Le rêve) خطيا ناسيا طريقه وهو يمر. أما حلم اليقظة (La reverie)، فإنه يشتغل كنجم، يعود إلى نقطته الأساسية لكي يرسل أشعة جديدة. وبالتحديد فإن حلم اليقظة أمام النار، العذب والمدرك لسعادته هو الأكثر عفوية في تمركزه»[9].

النار المنحصرة في الموقد تمثل بالنسبة للإنسان المجال والموضوع الأول لأحلام اليقظة، فهي رمز ودعوة للاستراحة والهناء. وهكذا لا يمكننا بالفعل تمثل الأبعاد السيكولوجية والأنطولوجية(لفلسفة الاستراحة) دون هذه الأحلام التي تتأمل الموقد والنار المشتعلة. الجلوس أمام النار يثير مجموعة من أحلام اليقظة، قد تأخذ أبعادا وحمولة فلسفية. ولعل أهم قيمة وجودية توحي بها النار، هي أنها تقدم نموذجا حيا عن التغير والتحول، لأنها تؤسس الزمان واللحظة وتدفع بالحياة إلى حدودها القصوى.

حلم اليقظة أمام النار يعطي بعدا تراجيديا للقدر

(9) Ibid , p: 36.

الإنساني، يتمظهر في عقدة توحد ثلاثة معطيات إنسانية أساسية:

- عشق واحترام النار.
- غريزة الحياة.
- غريزة الموت.

يختار باشلار لهذه العقدة اسم "اومبيدوكل" (Empedocle)، يجتمع الحب والموت والنار في اللحظة الوجودية نفسها، ليؤسسوا في نفس الآن مفهوما للخلود.

تحمل النار مجموعة من الدلالات الفلسفية الأخرى للموت تتجاوز في نواحٍ كثيرة المستوى البيولوجي لتأخذ أبعادا انطولوجية أكثر عمقا. يخلق حلم اليقظة أمام النار موتا حميميا، ويندثر العالم المادي في أفق البحث عن المطلق. يقول باشلار: «الموت داخل الشعلة هو الأقل انعزالية من بين كل الميتات. حقا إنه موت كوني، حيث يتلاشى عالم بأكمله مع المتأمل. المحرقة (Bûcher) رفيقة التطور»[10].

لقد أخذ التحليل النفسي منذ مدة على عاتقه دراسة الأساطير والميتولوجيات، وقد أوجد في سبيل ذلك مادة غنية للتفسير من أجل إيضاح الأساطير التي تحيط باكتشاف النار. لكن مسار هذا التحليل النفسي، باستثناء أعمال يونغ (C.G.jung) لم يدرس بما فيه الكفاية التفسيرات العلمية

---

(10) Ibid , p: 43.

والموضوعية التي قاربت وتناولت اكتشافات الإنسان البدائي. ذلك أن أهم ما يمكن مؤاخذته على التفسيرات العلمية المعاصرة هو كونها لا تستجيب للأفق المعرفي، وكذا المناخ الذي يحكم اشتغالات الإنسان البدائي. ذلك أنها تقوم على اسقاطات عقلانية متسرعة جداً، دون إحاطة بالشروط والمعطيات السيكولوجية للتفكير البدائي. من هنا يؤكد باشلار ضرورة وجود تحليل نفسي، يسعى إلى ملامسة اللاوعي تحت الوعي، وحلم اليقظة بين ثنايا التجربة.

ولعل أهم قضية يطرحها الاشتغال حول النار، والتي يمكن أن تعرف مجموعة من الاسقاطات المفهومية الخاطئة هي المعطيات التي ألصقت بـــ "الاحتكاك" كعملية تؤدي إلى النار. لقد غيبت التفسيرات الموضوعية، الشروط السيكولوجية والنفسية التي قادت إلى التفكير في حك قطعتين وبالتالي إشعال النار. في هذا السياق، يؤكد باشلار بأن الحك تجربة مرتبطة بأبعاد جنسية ودوافع حميمية، يقول: «الحب هو الفرضية العلمية الأولى من أجل إنتاج موضوعي للنار. بروميثوس عاشق قوي أكثر منه فيلسوف ذكي. وانتقام الآلهة هو انتقام للغيورين»[11].

لا شك أنه من بين الوسائل الأكثر تداولا لدراسة نفسية الإنسان البدائي تتجلى بالأساس في دراسة الشعوب والقبائل

---

(11) Ibid , p: 51.

البدائية الموجودة إلى حد الآن. لكن بالنسبة لتحليل نفسي للمعرفة الموضوعية، فإنه توجد ممكنات أخرى من أجل تمثل "البدائية". يتعلق الأمر في الواقع: «بالنظر إلى ظاهرة جديدة لكي نلاحظ صعوبة الموقف الموضوعي الملائم لها حقا. حيث يظهر بأن ما خفي من الظاهرة يتعارض تماما وبقوة مع تموضعها. ولا يتلازم الشيء الخفي مع الجهل ولكن مع الخطإ»[12]. المنهجية التي يقترحها باشلار تقوم على ضرورة الوقوف على ردود الفعل، وعلى تفاعلات العقول غير العلمية اتجاه الظواهر الجديدة.

إن عملية كالاحتكاك تفترض من الباحث، إضافة إلى استحضار المكونات النفسية، التخلص من كل الحدوس واليقينيات الذاتية التي غالبا ما تستلهم مرجعياتها من المعطيات السائدة. وفي هذا الإطار فإن باشلار يقترح تبني المنهجية التي دعا إليها عالم نفس الأعماق "كارل غوستاف يونغ" والمتمثلة في البحث نسقيا ومنهجيا عن المكونات الليبيدية في نشاط الإنسان البدائي، بل إنها تحكم كل أنشطة الإنسان العامل أو الصانع (L'homme faber). الإحساس بالدفء والسخونة يؤدي إلى الشعور بالسعادة، وبالفعل فإن قصيدة كتلك التي لـ "نوفاليس" تقدم تأويلا جديدا للبدائية وللعلاقة الحميمية بين السعادة والنار. هذا الطابع المميز

---

(12) Ibid , p: 53.

للقصيدة النوفالسية، دفع باشلار إلى إعطائها سمة عقدة تؤلف: «بين الاندفاع نحو نار أثارها الاحتكاك والرغبة في دفء مقتسم. هذا الاندفاع سيؤسس ثانية الغزو القبل ـ تاريخي (Préhistorique) للنار في بدائيته الحقيقية. تتميز عقدة نوفاليس بالوعي بدفء حميمي يتصدر دائما علما بصريا كليا للنور»[13].

لقد ظل اكتشاف النار واجتياحها مرتبطاً في دوافعه الأولى بوازع جنسي. هذه النار المجنسنة (Sexualisé) والمفاهيم التي ارتبطت بها، أحدثت دائماً اضطراباً وتشويشاً من أجل الوصول إلى نتائج موضوعية يقينية خالية من كل معطيات الفكر ـ الماقبل علمي. ويمكن أن نستشف هذه الأبعاد الجنسية في تأملنا لمجموعة من النصوص قاربت النار، وبالتالي ارتبطت بشكل غير مباشر بهذه الثقافة التي تحول النار إلى عنصر جنسي بامتياز، يظهر ذلك في:

1-أن النار لها خصائص ومحددات الكائن الحي، بل أنها تخضع لنفس منطق الدورة البيولوجية من ولادة وفتوة وشيخوخة وموت.

2-النار عنصر يتميز بخصوبة كبيرة، تؤخذ في أبعادها ومحدداتها الجنسية.

3-النار بذرة أو شرارة تكون سببا وعلة لظواهر كبيرة.

---

(13) Ibid , p: 75.

تعريفات أخرى ترتبط اكثر بالثقافة الاسقاطية، انطلاقا من مركزية إحيائية، وبالتالي فهي تشكل عقبة أمام كل فهم موضوعي وعقلاني لظاهرة مثل النار. دعوة باشلار، تقوم على أساس تطهير العقل الإنساني من كل هذه الرواسب المعرفية، والتي تجد جذورها وأصولها الأولى في الفكر الماقبل علمي. إن الوصول إلى نتائج حقيقية يحتم على الباحث مقاربة الأشياء في مباشرتها؛ يقول باشلار: «بمراكمتنا لمجموعة من الحماقات نريد أن نعطي المثال عن حالة فكر ينجز كليا مجازات فاقدة للمعنى. حاليا، وبما أن الفكر العلمي قد غير كثيرا من بنيته، فقد تعود على تحولات المعنى الكثيرة بحيث يكون في الغالب أقل تضررا من تعابيره، كل المفاهيم العلمية أعيد تعريفها. لقد قطعنا في حياتنا الواعية مع الاتصال المباشر بالاتيمولوجيات الأولى، لكن الفكر القبل-تاريخي (Préhistorique) أو اللاوعي بالأحرى، لا يفصل الكلمة عن الشيء. إذا تكلم عن شخص متوقد، فإنه يريد أن شيئا ما يحترق داخله»[14].

لقد ظلت النار مرتبطة في الثقافات القديمة ـ مع وجود امتدادات لذلك في الفكر المعاصر ـ بكل المجازات الجنسية، فهي ترمز إلى معاني الخصوبة والولادة والفحولة والإنتاج والقوة. . . . وبالفعل عبر الفكر الخيميائي ابتداء من

(14) Ibid , p: 89.

مفاهيمه إلى نتائجه، مرروا بكل أدواته المنهجية والتقنية عن اشتغالات وأحلام ذات طابع جنسي، لذلك يمكننا القول بأن الخيمياء: «تجسد بلا تحفظ وببساطة الخصائص الجنسية لحلم اليقظة الذي يثيره الموقد. بعيدا عن أن تكون وصفاً للظواهر الموضوعية، فإنها محاولة لوصف الحب الإنساني في قلب الأشياء»(15). والقارئ لنصوص الخيميائيين يلاحظ بجلاء حيثيات هذا المعطى الجنسي في بعض المظاهر منها مثلاً:

1-أن الموقد كان يأخذ دائما مظاهر وأشكالاً هندسية.

2-يوظف الخيميائي إناء يشبه الأجهزة التناسلية للمرأة أو الرجل.

3-تحدثت كتب الخيمياء بشكل مطول عن "زواج" الأرض والنار.

ارتبطت النار إذن، في الفكر الخيميائي بهذا الأفق الجنسي: «من أجل فهم جنسية النيران الخيميائية وكذا التقويم المهيمن بوضوح للنار الذكورية الفاعلة داخل المني، لا يجب أن ننسى بأن الخيمياء هي فقط علم للذكور والعازبين، ولرجال بلا امرأة»(16).

كذلك من أجل فهم الأصل الجنسي للأفكار المتعلقة والمتمحورة حول النار، فإنه يمكننا أن نقف في كتب

(15) Ibid , p: 93.

(16) Ibid , p: 96.

الخيمياء على: «الوصف الطويل لزواج النار بالأرض. يمكننا تفسير هذا الزواج انطلاقا من وجهات نظر ثلاث: في دلالته المادية كما يفعل في الغالب مؤرخو الكيمياء، وفي بعده الشعري كما هو الحال مع نقاد الأدب. ثم في معناه الأصلي واللاواعي كما نقترح نحن»[17].

على كل تحليل نفسي للمعرفة الموضوعية، أن يبدأ مشروعه بالكشف عن الحدوس المرتبطة بالنار والتي هي في الأساس اعتقادات بدائية اكثر منها ممكنات موضوعية. لقد كانت النار أول اكتشاف كبير ومثير للإنسان البدائي، وشكلت في حقيقة الأمر مرحلة جديدة بالنسبة للإنسان، وقطيعة كيفية مع "النمط" المعيشي البدائي. تأمل النار فصل الإنسان بشكل كلي عن الحيوان وأعطاه قدرة على التفكير في تجاوز سطح الأشياء، كما كان الشأن مع الإنسان الصانع ليصبح الأمر أكثر عمقا. ذلك أن الإنسان: «الحالم أمام موقده، هو على العكس من ذلك إنسان الأعماق والصيرورة، أو أيضا ولكي نعبر عن هذا بشكل أفضل، تعطي النار للإنسان الذي يحلم مغزى العمق والصيرورة»[18].

تؤسس النار قيم الحب والمعرفة، وتعطي إحساسا بوجود الآخر. فالمساحة الحلمية التي يتمظهر فيها العالم من خلال

---

(17) Ibid , p: 97.

(18) Ibid , p: 100.

الدفء والسخونة، تعطي للوجود والإنسان وكذا الأشياء قيما ومفاهيم أخرى غير المستوى الحسي المباشر والذي غالبا ما تصاغ قوالبه الميكانيكية بفعل الإنسان العامل في مستوى ثابت. إلا أن فكر النار وكذا ثقافة النار أعطيا لهذا الأفق بعدا ديناميا وأكثر حركية. ذلك أن مفاهيم الحدوث والتحول والصيرورة هي بالأساس نتائج لاكتشاف النار.

لقد راكمت الدراسات المرتبطة بالنار مجموعة من النتائج الخاطئة، وذلك نظرا لعجزها عن التخلص من المعطيات المعرفية التالية:

1-الحدوس الذاتية.

2-المنظومة الثقافية السائدة.

وهي عوائق إبستمولوجية لم تلامس فقط الشعراء والأدباء والخيميائيين ولكنها امتدت كثيرا إلى البيولوجيين والكيميائيين. تختلط عندهم الأفكار بالأحلام وينتفي البعد الموضوعي وذلك نظرا للقيمة الاجتماعية الكبيرة التي تحتلها النار في كل الثقافات الإنسانية. هذا الارتباط الحميمي، عمل على انتفاء كل المقاربات العلمية الموضوعية. ومن اجل تحويل الفكر العلمي إلى فكر استدلالي، يدعو باشلار إلى تحليل نفسي لهذا الفكر حتى يتم الوقوف عند البنيات الدائمة والثابتة باعتبارها قيما لاواعية.

اشتغل الكيميائيون بالنار لمدة طويلة انطلاقا من اعتقاد مفاده أن حل لغز العالم واكتشاف أسراره يتأتى من الوقوف

على حقيقة النار، فهي تشكل مفتاحا من أجل فهم الكون ومعطياته الأنطولوجية. النار سبب وعلة كونية يأخذها الباحثون باعتبارها قيمة كلية، مسألة أدت إلى اختلاط الذاتي بالموضوعي في تقدير حقائق النار، وقد تمظهر ذلك في الفكر الماقبل علمي بتوظيفه للنظريتين:

- الإحيائية (Animiste).
- الجوهرية (Substntialiste).

وبسبب ذلك ظلت النار مفتقدة لعلم خاص بها.

لقد عمل الباحثون دائما على إسقاط مجموعة من خصائص الكائن الحي على النار، وبالتالي فإن دور التحليل النفسي يتمثل في الكشف عن تسرب وانفلات مجموعة من الاعتقادات الخاطئة إلى الرؤية العلمية الموضوعية. النار ظاهرة طبيعية تحكمها قوانين كيميائية، ومن أجل الوصول إليها ينبغي التخلص من كل التأويلات التي يمكن أن تأخذ سمة ذاتية أو ميتافيزيقية أو إحيائية، أو افتراضها لجوهر لا يمكن الوصول إليه. يقول باشلار: «إن تحليلا نفسيا للمعرفة الموضوعية عليه استبعاد كل الاعتقادات العلمية التي لا تتشكل بشكل خاص داخل التجربة الموضوعية»[19].

الدور الكبير الذي تلعبه النار في حياة كل واحد منا، ثم المغالاة في إحاطتها بمنظومة مفهومية تتجاوز في أحيان كثيرة

---

(19) Ibid , p: 124.

التقدير الموضوعي لكي تأخذ أبعادا أسطورية، أثراً كثيراً على الدراسة العلمية. وحتى نعرف حدود ودرجة مستوى هذا الاختلاط والتمازج فإن باشلار يضع مؤشرا ومقياسا لذلك بقوله: «إذا كانت الاعتقادات الشخصية تتجاوز، داخل تجربة، حصيلة المعارف التي يمكننا توضيحها واختبارها ثم التدليل عليها، فإنه يتحتم القيام بتحليل نفسي»[20].

اعتقد الكيميائيون لمدة طويلة، أن للنار قوة باطنية وجوهرية تتناقض تماما مع كل ما يمكن أن تعكسه مظهريا. هذا التصور الميتافيزيقي وما ترتب عنه من استدلالات أخرى، عرقل كثيرا مسألة إيجاد علم خاص بالنار.

شكل اكتشاف الكحول، بتناقضاته الفينومينولوجية الكثيرة المؤسسة لجسده، أرضية أخرى لكي تظهر بعض العقد المعرفية والتي عملت دائما على تعتيم الرؤية الحقيقية للنار.

حدد باشلار بعض خصائص الكحول في:

- انه ماء النار.
- ماء يحترق ويشتعل لأقل شرارة.
- يشبه في قوته التحطيمية "الماء القوي".
- يضع الكحول حرارته في جوف البطن الإنساني.
- يظهر الكحول قوته من خلال كمية صغيرة.

هذه مزايا من بين أخرى تؤثر بلا شك في التقدير

(20) Ibid , p: 134.

الصحيح للكحول، وبالتالي على التحليل النفسي تجاوز الأفق المنهجي الذي من شأنه خلط الذاتي بالموضوعي وإعطاء التجربة شروطها العلمية والمنهجية الصحيحة. فالكحول هو أكثر الأجسام قابلية للاحتراق، حيث يشتعل لأقل شرارة وبالتالي حينما نشرب الكحول، فإن صورة ذلك يمكن أن تأخذ مستوى كوننا ندخل النار إلى بطوننا، مما يقيم الدليل حسب باشلار عن: «تقارب التجارب الذاتية والموضوعية. هذه الفينومينولوجيا المزدوجة تهيئ عقداً، على التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية أن يفككها من أجل العثور ثانية على حرية التجربة. من بين هذه العقد، توجد واحدة نوعية وقوية جداً، إنها تلك التي تغلف الدائرة تقريبا: "حين تمتد الشعلة فوق الكحول، وبالتالي تدلي النار بشهادتها وحكمها، وحينما يغتني ماء النار الأصلي جليا بالشعل التي تلمع وتحرق، فإننا نشربه. وحده ماء الحياة من بين كل مواد العالم يقترب جدا من مادة النار»[21].

وقد جعل شاعر رومانسي كبير مثل هوفمان من ظاهرة كتلك قصيدة للشعلة عبر كل أعماله، ترسم ملامحها الكبرى وتحدد أفقها الإبداعي. وقد أخذت حسب باشلار طابع عقدة تخترق لاوعي هوفمان وتحمل اسم "عقدة هوفمان" (Le complexe de Hoffmann) أو كذلك "عقدة بنش"

(21) Ibid , p: 146.

(Le complexe de punch). اللاوعي الكحولي، حقيقة أصلية وأولية في كل مقاربة لنص هوفمان، ذلك أن الكحول يشكل مصدر الإلهام الأول والجوهري بالنسبة إليه. ليس بعامل ثانوي، أو مجرد شراب للإثارة والهذيان، ولكنه في بعده الفلسفي والانطولوجي يقدم مجموعة من الإمكانات لتفسير الأبعاد الحلمية لقصيدة هوفمان. في مثل هذا الموقف، لا يكفي العقل وحده، بل من اللازم استحضار كل المكونات الأخرى التي تدخل في العملية الإبداعية، وذلك حتى تتم الإحاطة بمحددات هذه العملية. ولعل من أكبر الثورات المنهجية التي يمكن أن تتحقق في هذا الإطار داخل الدرس الباشلاري هو تحديده لمفهوم العنصر داخل النص، والذي يشكل محورا تنطلق منه مختلف التوليدات الإيحائية الأخرى. في هذا السياق مثّل بالفعل كتاب "التحليل النفسي للنار" ثورة معرفية حقيقة تنضاف إلى مجموع الثورات التي جاءت بها المقاربات الباشلارية، لماذا؟ لأنه يشكل لبنة أساسية لنظرية سيشتغل عليها باشلار فيما بعد، مكرسا لها جل أعماله. يتعلق الأمر بنظرية العناصر الأربعة: الماء والنار والهواء والأرض. وقدرتها الابستيمولوجية والأنطولوجية على تصنيف الأمزجة والخيالات الشعرية. يقول باشلار: «إذا كان للعمل الحالي من فائدة، فإنه عليه أن يوحي بتصنيف للتيمات الموضوعية، التي ستهيئ تبويبا للأمزجة الشعرية. لم نتمكن بعد من ضبط نظرية شاملة، لكن يظهر لنا جيدا بأنه هناك

بعض الصلات بين نظرية العناصر الفيزيائية الأربعة وكذا نظرية الأمزجة الأربعة. في جميع الأحوال فإن النفوس التي تحلم تحت إشارة النار أو الماء أو الهواء تظهر إلى أي حد هي مختلفة »[22].

في تطوير ما سماه باشلار بفيزياء أو كيمياء حلم اليقظة، يمكننا الوصول إلى نظرية رباعية للأمزجة الشعرية. يظهر، في هذا العمل، النزوع العلمي الموضوعي حيث السعي إلى تقنين حلم اليقظة في محددات نظرية تحكم صيرورته وانسيابه. هناك من يحلم بالنار أو الماء أو الهواء أو الأرض. أربعة ميادين تكشف عن وفاء كوسمولوجي للمبدع تجاه كل واحد من هذه العناصر الأربعة. يتساءل باشلار: «قل لي ما هو شبحك؟ هل هو عفريت، أو مدفأة، أو حورية البحر أو سلفة؟»[23] إحالة بمعنى من المعاني إلى الأرض أو النار أو الماء، أو الهواء.

العمل الحالي، إذن ـ حسب باشلار ـ يمكن أن يقدم نفسه كفيزياء أو كيمياء لأحلام اليقظة، فهو يقنن شروطها الموضوعية. لذلك يجب أن يهيئ الأدوات النظرية والمنهجية من أجل نقد موضوعي بالمفهوم الدقيق للكلمة يتجلى ذلك في:

* كل مبدع عليه وضع رسم تخطيطي (Diagramme)،

---

(22) Ibid , p: 153-154.

(23) Ibid , p: 154.

يشير إلى معنى وتماثل (La symétrie) وانتظام مجازاته. على النقد الموضوعي أن يظهر بأن: «المجازات ليست مجرد أمثولات تنطلق كشهاب، لكي تندلع في السماء وهي تفرض لادلالاتها، ولكن على العكس من ذلك فإن المجازات تستدعي وتتماثل أكثر من الأحاسيس إلى حد أن فكرا شاعريا هو ببساطة وبلا قيد تركيب للمجازات»(24).

* الرسم التخطيطي الشعري ليس رسما ولا بيانا، بل عليه أن يجد وسيلة تدمج الترددات والالتباسات والتي وحدها يمكن أن تحررنا من الواقعية.

* الرسم التخطيطي الشعري، عليه أن يظهر ويبين تفكيكا للقوى وذلك بالقطع مع مبدأ وحدة التركيب.

إن القيمة المعرفية والفكرية لباشلار، تتجلى بالأساس في خاصيته الانفتاحية الكبرى والتي أعطته هذه الرؤية النقدية للتأسيسات المفهومية الكلاسيكية وصياغة أخرى قادرة على خلق وإضفاء دينامية جديدة. في هذا الإطار، يمكن أن ندرج مقاربته لبعد مفهومي جديد، وهو يخضع النار لمنظوره النفسي. هذا المفهوم هو ما اصطلح عليه بـ "التسامي الدياليكتكي" والذي يختلف في صيرورته عن التصور الكلاسيكي للتسامي. أو بتعبير باشلار: التسامي المستمر أو

---

(24) Ibid , p: 185.

المتواصل (La sublimation continue) والذي يشكل الموضوع الأساسي للتحليل النفسي الكلاسيكي

يمكن أن نستشف المعطيات البيداغوجية لهذا المفهوم الجديد للتسامي في:

1- إن التسامي في المنظور الباشلاري لا يأخذ بعدا مرضيا أو اكلينيكيا، بل هو ضرورة طبيعية في مسار الذات السيكولوجي، ليس فقط لتعيد خلق توازنها النفسي، ولكنه آلية أساسية في إعادة صياغة المساحة التأملية والأداتية التي تخلقها هذه الذات مع العالم. يقول باشلار في هذا السياق: «فيما يخصنا، فإن تطبيق مناهج التحليل النفسي داخل نشاط المعرفة الموضوعية، أوصلنا إلى النتيجة التالية، بأن الكبت نشاط طبيعي ومفيد. أو بشكل أفضل، هو نشاط مرح. لا فكر علمياً دون كبت، وهو أصل الفكر اليقظ، المتبصر والمجرد»[25].

وللوقوف على طبيعة هذا التسامي الجديد، يؤسس باشلار لمنهجية جديدة تقوم على وضع المدهش والعجيب والمثير مكان الضروري والأداتي.

2-التأويل الواعي للكبت، وبالتالي تجاوز علم النفس الكلاسيكي. ولعل هذا التقويم الجديد يعطي للذات قدرة

(25) Ibid , p: 170.

كبيرة على إدراك الخطإ وكذا العمل على تقويمه علميا وموضوعيا.

قبل هذا الأفق الفكري، كان الخطأ يشكل عرقلة لمسار الفكر وتشويشا على هدوء العقل. إلا أن إدخال الكبت في المسار الطبيعي لآليات اشتغال الذات الإنسانية، وفي إطار هذه الجدلية التي تعطي للخطإ قيمة الحقيقة المؤجلة، فإن العقل الإنساني يجد سعادة وغبطة وهو يعيش هذه الإيقاعية الجديدة.

إن ظاهرة كالنار بخاصياتها المتناقضة والمتعددة، تحتم افتراض منهجية تقوم على الجدل، انطلاقا من الثنائية الكبيرة التي تحيط بالنار، وهي أنه بقدر ما تحرقنا فإنها تضيئنا. قطبان كبيران تتوالد عنهما كل القيم الأخرى.

غاستون باشلار عقلاني رومانسي:

جون. ليبيس/باسكال نوفل(1)

تكمن القيمة النظرية والمنهجية لكتاب غاستون باشلار عقلاني رومانسي"، في كونه إحدى ثمرات الإشتغال المستمر لمجموعة من الباحثين يجمعهم العشق الحالم للمتون الفلسفية لمفكر إنساني كبير من طراز: غاستون باشلار. وقد تبلور ذلك فعلياً في احتضان فرنسا اليوم لمؤسستين فكريتين تتوخيان بالأساس خلق روافد معرفية مشتركة، تصب كلها في إيجاد مبررات نظرية دائمة لاستمرارية البحث في عطاءات التأملات الباشلارية وأقصد بذلك:

1) مركز غاستون باشلار للأبحاث في المتخيل والعقلانية.

---

(1) Pascal Nouvel, Jean Libis: *Gaston Bachelard, un rationaliste romantique*, 1997, éditions universitaires de Dijon.

وأشير إلى أنني قمت بترجمة هذا العمل إلى اللغة العربية، ضمن نصوص أخرى حول باشلار وذلك في إطار الحلقة الأولى من سلسلة "باشلاريات" التي نسعى من خلالها، إلى تناول الإشتغالات النقدية والأدبية داخل المشروع الباشلاري.

2) جمعية أصدقاء غاستون باشلار، والتي تضم مجموعة من الباحثين يحملون مختلف جنسيات العالم، من فرنسا الموطن الأصلي للفيلسوف إلى البرازيل وتونس والمغرب وأميركا والبرتغال وكوريا وإيطاليا وسويسرا... لا هوية لهم إلا تكثيف الإشعاع الفكري والمفهومي في مختلف بقاع الدنيا، وذلك بإعادة تكثيف اللحظة الجمالية الباشلارية بكل أبعادها الشاعرية التي ارتكزت أولا وأخيرا على تجربة الإنسان المتخيل بامتياز حينما يعيد بدهشته الإغريقية، الوجود إلى زمان الطفولة الدائمة.

وقد بذلت "جمعية أصدقاء باشلار" بالفعل مجهودا كبيرا في مراكمة كتابات تلامس من جوانب مختلفة الملامح النظرية الكبرى لأبحاث باشلار، التي وضعت على امتداد ثلاثين سنة من الاشتغال مسارا جديدا للعقل الإنساني وحسه الجمالي سواء على مستوى العلوم الفيزيائية والرياضية أو التنظيرات الشعرية. ذلك أن المشتغل على كتابات فيلسوفنا يجد بحس نظري رفيع هذه اللحمة التي يمكن أن تجمع بين مبحث غارق في الإنسانية والرخاوة وهو: القصيدة، وشيء آخر مناقض له تماما لا يمكنك تمثل طقوسه إلا إذا أعطيت لقدراتك العقلية أقصى حدود التجريد وأقصد بذلك: الرياضيات. قد تبدو المسألة غير ممكنة إلا أن القدرة على الجمع بين قراءة يومية لـ إدغار بو وبودلير ورامبو... وتفكيك

النماذج الهندسية للقنبلة الذرية وجدت في النظرية الباشلارية الإحالة الموضوعية عن ذلك.

وفي هذا السياق أشير إلى أن الجمعية نظمت في خريف سنة 2002 ندوة دولية تحت عنوان "باشلار والكتابة"، وذلك في مدينة ديجون الفرنسية، البلدة الأصلية للفيلسوف بعد اللقاء الأول الذي كان عام 1997.

بالإضافة إلى ما سبق، تتأتى القيمة المعرفية والتاريخية كذلك لهذا العمل، من خلال العلاقة المباشرة لمؤلفيه بالمتن الباشلاري، سواء في جانب اهتمامه بتاريخ العلم أو إشاراته الشاعرية وهو يقارب القصيدة الغربية ابتداء من الرومانسية الألمانية والإنكليزية إلى آخر بيانات السورياليين. ذلك أن "جون ليبيس" (J. Libis) الرئيس الحالي لجمعية "أصدقاء غاستون باشلار" يعتبر من المشتغلين المتخصصين في كتابات الفيلسوف، وقد توج مجموعة من الدراسات في هذا المجال بأطروحته لنيل الدكتوراه التي ناقشها سنة 1998 في موضوع: "باشلار والمالنخوليا، ظل شوبنهاور في فلسفة غاستون باشلار"[2]. في حين أن "باسكال نوفل" (P. Novel) وهو باحث في "مركز غاستون باشلار للأبحاث في المتخيل

---

(2) Jean Libis: "Bachelard et la mélancolie: l'ombre de Shopenhauer dans la Philosophie de Gaston Bachelard" décembre 1998.

والعقلانية"، فإنه كذلك أحد أعضاء هيئة تحرير المجلة المتينة " دفاتر غاستون باشلار"[3]. التي تتابع بشغف واهتمام وفي مختلف بلدان العالم، كل الاشتغالات العلمية التي تنصب في كافة الروافد المعرفية التي نحتها باشلار بحلمية جميلة.

لاشك أنه في العالم العربي، ظل الاستثمار المفهومي لهذه التجربة الفلسفية في القرن العشرين مرتبطا أساسا بالاشتغالات العلمية والابستمولوجية[4]. في حين أن الرافد الثاني من اللحظة الباشلارية أي تلك المتعلقة بالتصورات

---

(3) تصدر عن مركز غاستون باشلار للأبحاث في المتخيل والعقلانية، التابع لجامعة "بورغون"(Bourgogne)، بالتعاون مع "جمعية أصدقاء غاستون باشلار". وقد ابتدأ صدورها السنوي منذ العام 1998، لتصل الآن إلى العدد الخامس. تتناول موضوعاتها الكتابات الحديثة التي تلامس بعمق وجدية الجوانب المختلفة من اشتغالات غاستون باشلار سواء تلك المتعلقة بالأدب أو العلم. وقد جاءت ملفاتها على الشكل التالي:

1-مفاهيم وتساؤلات باشلارية (1998).

2-باشلار وإشعاعه العالمي (1999).

3-ذكريات وشهادات في حق الفيلسوف (2000).

4-الحضور الباشلاري في البرازيل (2001).

5-غاستون باشلار والفنون (2002).

(4) عرف غاستون باشلار في العالم العربي بالدرجة الأولى، كباحث في الابستمولوجية وتاريخ العلم. في حين ظل قطبه الثاني والذي ارتبط بأبحاثه المتمحورة حول النصوص الأدبية والشعرية، هامشيا ومهملا،

النقدية والأدبية والتي وضعت الإطار النظري لما سمي تاريخيا بالنقد الجديد[5]، بقيت مهملة.

- مع أنه لحظة أساسية في إدراك البنية الفكرية لاجتهادات غاستون باشلار والتي حاولت بكل بساطة سواء في الرياضيات أو القصيدة البحث عن أفق جديد لـ: الخيال الإنساني. يؤكد من خلاله، أنه لإدراك الأبعاد الكونية والمفهومية لنظرية كالنسبية مثلا، فإنه من الضروري كذلك استحضار المناخ الحلمي لقصيدة كتلك التي كتبها: إدغاربو، أو بودلير، أو شيلي أو نيتشه ...
وفي هذا السياق أدرج الكتب الباشلارية المتعلقة بنظريته الشعرية والمترجمة إلى اللغة العربية:
-غاستون باشلار، شعلة قنديل، ترجمة خليل احمد خليل، الطبعة الأولى 1995 المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .
-غاستون باشلار، النار في التحليل النفسي، ترجمة نهاد خياطة، الطبعة الأولى 1984، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع .
-غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، الطبعة الرابعة، 1996، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .
-غاستون باشلار، شاعرية أحلام اليقظة، علم شاعرية التأملات الشاردة، ترجمة جورج سعد، الطبعة الأولى 1991، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

(5) أسس غاستون باشلار مسارا جديدا أثر في كل التجارب الفكرية التي جاءت بعده أي ما يسمى بالنقد الجديد، والذي توزع بين النقد البنيوي والنقد الموضوعاتي، ذلك أن دراسة باشلار للشاعر "لوتريامون" ثم كتاباته حول العناصر الأربعة: الماء والنار والأرض والهواء، أثرت في كل الأسماء التي شغلت الساحة النقدية الفرنسية في القرن العشرين.

يقول الباحث: «Jean jacques Wunenburger» في تقديمه للكتاب: «كان لجامعة بورغون بديجون، امتياز استضافة الفيلسوف غاستون باشلار ضمن جسمها الأستاذي وذلك بين 1931 و1940. نصف قرن فيما بعد، سيجتمع أساتذة باحثون وفلاسفة وأدباء في حضن "مركز غاستون باشلار للأبحاث في المتخيل والعقلانية". وعبر منتدياته وأيام دراسية وإعلامية، ساهم في تعميق دراسة عمل الفيلسوف وبطريقة اكثر توسعا، الصلات المعقدة بين المفهوم والصورة في المنتوجات الذهنية والثقافية. هذا العمل الصغير المهيأ من قبل الباحثين في المركز "Jean libis" و"Pascal Nouvel"، يتوخى إعطاء مدخل عن حياة ونتاج غاستون باشلار عبر محاولتين شخصيتين تقدمان علامات لفهمه وتضعان فرضيات من أجل إعادة تأويل العمل. إنها إذن دعوة لمتابعة البحث».

صدر كتاب "غاستون باشلار، عقلاني رومانسي" عام 1997 عن المطابع الجامعية لديجون وهو من الحجم الصغير، ويحتوي على مقالتين أساسيتين تحملان العناوين التالية:

أ-غاستون باشلار؟ فيلسوف فائض.

ب-جانوس والمالنخوليا.

بالإضافة إلى بيوغرافية غاستون باشلار[6] وبيليوغرافيا بأعماله التي تمتد من 1928 بكتابه:

(6) كانت ولادة غاستون باشلار في بلدة صغيرة تسمى (Bar-sur -Aube)

"دراسة في المعرفة التقريبية" (Essai sur la connaissance approchée) إلى غاية 1961 بعمله الجميل شعلة قنديل (La flamme d'une chandelle)[7].

- في منطقة شامبانيا وذلك يوم 27 يونيو 1884. حيث قضى طفولته وشبابه وسط الحقول والجداول وهو ما وجه تفكيره العام. كما أن وسطه الشعبي سينمي فيه ما سماه "مارسيل فوازان" بالعبقرية الشعبية والتي تمكن من المحافظة على العلاقة المتوازية والغنية مع الأشياء والأرض. وقد تابع دراسته بنفس البلدة إلى غاية 1902، حيث شغل وظيفة معيد(Répétiteur) في مدرسة ثانوية ثم بعد ذلك اشتغل بالبريد، وتابع دراسته إلى جانب عمله، حيث حصل عام 1912 على الإجازة في الرياضيات. من هنا ابتدأت مغامراته الكبيرة على حد تعبير "مارسيل فوزان" .ثم لظروف الحرب، فقد جند باشلار ولم يترك الجندية إلا سنة 1919. وفي سنة 1920 حصل على الليسانس في الفلسفة ثم درجة الأكريكاسيون سنة 1922 بعد أن أصبح قبل ذلك مدرسا للرياضيات والفيزياء. ثم دكتواره من السوربون. أما حياته الجامعية فقد بدأت سنة 1930، بعد تعيينه أستاذا بجامعة ديجون وانتهت بالتدريس في السوربون. وقد توفي باشلار عام 1962.

(7) يمكن أن نحصر هذه الأعمال في الكتابات التالية:

* *Essai sur la connaissance approchée*, vrin paris 1928.

[دراسة في المعرفة التقريبية، فران باريس 1928]

* *Etude sur l'évolution d'un problème de physique: la propagation thermique dans les solides*, vrin paris 1928.

[دراسة تطور مسألة فيزيائية: الانتشار الحراري في الجوامد، فران باريس 1928]

* *La valeur inductive de la relativité*, vrin Paris 1929.

يؤكد "باسكال نوفل" (Pascal Nouvel) بأن معنى

[القيمة الاستقرائية للنسبية، فران باريس 1929]

* *Le pluralisme cohérent de la chimie moderne*, vrin paris 1932.

[التعددية المتماسكة للكيمياء المعاصرة، فران باريس 1932]

* *Le nouvel esprit scientifique*, PUF, Paris 1934.

[الفكر العلمي الجديد، المطابع الجامعية الفرنسية، باريس 1934]

* *L'intuition de l'instant*, Stok , Paris 1935.

[حدس اللحظة، ستوك باريس 1935]

* *La dialectique de la durée*, PUF, Paris 1936.

[جدلية الزمان، المطابع الجامعية الفرنسية، باريس 1936]

* *L'expérience de l'espace dans la Physique Contemporaine*, Puf, paris 1937.

تجربة المكان في الفيزياء المعاصرة، المطابع الجامعية الفرنسية، باريس 1937.

* *La formation de l'esprit scientifique: contribution à une psychanalyse de la connaissance objective*, vrin , Paris 1938.

[تشكل الفكر العلمي: مساهمة في التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، فران، باريس 1938]

* *La psychanalyse du feu*, Gallimard 1938.

[التحليل النفسي للنار، كاليمار 1938]

* *La philosophie du non*, PUF, Paris 1940.

[فلسفة النفي، المطابع الجامعية الفرنسية، باريس، 1940]

* *Lautréamont* . José corti, Paris 1940.

[لوتريامون، جوزي كورتي، باريس 1940]

"فيلسوف فائض" هو كون غاستون باشلار الذي ولد يوم 27

---

* *L'eau et les rêves: Essai sur l'imagination de la matière*. José corti, Paris 1942.

[الماء والأحلام، دراسة في خيال المادة، جوزي كورتي، باريس 1942]

* *L'air et les songes: Essai sur l'imagination du mouvement*, José corti , Paris 1943.

[الهواء والأحلام دراسة في خيال الحركة، جوزي كورتي 1943]

* *La terre et les rêveries de la volonté: Essai sur l'imagination des forces*, José corti, Paris 1948.

[الأرض وأحلام يقظة الإرادة: دراسة في خيال القوى جوزي كورتي، باريس 1984].

* *La terre et les rêveries du repos: Essai sur les images de l'intimité*, josé corti , Paris 1948.

[الأرض وأحلام يقظة الاستراحة: دراسة في صور الحميمية. جوزي كورتي، باريس 1948].

* *Le rationalisme appliqué*, P.U.F, Paris 1949.

[العقلانية التطبيقية، المطابع الجامعية الفرنسية باريس 1949].

* *L'activité rationaliste de la physique contemporaine*. *PUF*, Paris 1951.

[النشاط العقلاني للفيزياء المعاصرة، المطابع الجامعية الفرنسية باريس 1951].

* *Le matérialisme rationnel* , P.U.F , Paris 1953.

[المادية العقلانية، المطابع الجامعية الفرنسية، باريس 1953].

* *La poétique de la rêverie* .P.U.F, Paris 1961.

يونيو 1884 قد ولج في بداية حياته إدارة مكتب البريد كمستخدم غير مثبت (Surnuméraire) أي «ذلك الذي لا ننتظره أبدا، ويجب أن نضعه أخيرا في مكان ما، ذلك الذي ليس له مكانه كليا»[8]. وبالفعل، عين باشلار كمستخدم للبريد في المكتب الباريسي لمحطة الشرق. وقد مكنه ذلك، من القيام بدراسات قصد التهيؤ لمهندس مكاتب البريد، لكنه رسب عام 1912 وفي المقابل سيجتاز بنجاح إجازة في

- [شاعرية حلم اليقظة، المطابع الجامعية الفرنسية 1961].

* *La poétique de l'espace*, P.U.F , Paris 1957.

[شاعرية المكان، المطابع الجامعية الفرنسية، باريس 1957].

* *La flamme d'une chandelle*, P.U.F, Paris 1961.

[شعلة قنديل، المطابع الجامعية الفرنسية، باريس 1961].

ونشير كذلك إلى الأعمال التي أصدرتها مجموعة من الناشرين بعد موت الفيلسوف وهي:

* *Le droit de rêver*, P.U.F, Paris 1970.

[الحق في الحلم، المطابع الجامعية الفرنسية، باريس 1970].

* *L'engagement rationaliste*, P.U.F, Paris 1972.

[الالتزام العقلاني، المطابع الجامعية الفرنسية، باريس 1972].

* *Etudes*, vrin , Paris 1970.

[دراسات، فران، باريس 1970].

* *Fragments d'une poétique du feu*, P.U.F , Paris 1988.

[شذرات شاعرية النار، المطابع الجامعية الفرنسية، باريس 1988].

(8) Pascal Nouvel: "Gaston Bachelard, philosophe surnuméraire", in *Gaston Bachelard un rationaliste romantique*, p: 9.

الرياضيات. زواج سنة (1914) ومع حرب (1914-1918) (جند في الفيلق الثاني عشر للخيالة). ولادة ابنته "سوزان "(1919). وفاة زوجته "جين"(1920). في نفس الحقبة، بداية نشاطه كأستاذ للفيزياء والكيمياء وكذا دراساته الفلسفية. إجازة عام 1920، وشهادة التبريز سنة 1922. ليتوج كل ذلك عام 1927 بمناقشة أطروحته الفلسفية، وفي عام 1930 عين أستاذا لفلسفة العلوم بجامعة ديجون (Dijon).

بدأت حياة باشلار الفكرية بكتابين هامين، يمثلان في حقيقة الأمر الواجهة الميتافيزيقية عند الفيلسوف، نقصد بذلك:

* حدس اللحظة، *(L'intuition de l'instant)* (1932).

* جدلية الديمومة، *(La dialectique de la durée)* (1936).

ساجل من خلالهما مفهوم الصيرورة (La continuité) عند برغسون، يقول في هذا السياق: «نقبل تقريبا من البرغسونية كل شيء إلا الاستمرارية»[9].

العلم لا يمكنه ملامسة ما للوعي من خصوصية، كما أن استمرارية إدراك الديمومة تنفلت منه، وإذا ارتبط العلم التجريبي بتسجيل معطيات التجربة، فإن المسألة تتعلق

---

(9) Ibid, P: 10-11.

بمعطيات منفصلة عن بعضها بفاصل الزمان، ذلك ما لاحظه برغسون من خلال كتابه: بحث في المعطيات المباشرة للوعي *(L'essai sur les données immédiates de la conscience)*.

وقد حاول باشلار، دحض الأطروحة البرغسونية وذلك بتأكيده على أن الزمان[10]. يجب فهمه كتتابع للحظات أكثر من النظر إليه باعتباره ديمومة. الحقيقي في تجربتنا الأنطولوجية هو: اللحظة، ولا شيء أكثر. والديمومة ليست بمعطى بل تأليف يتأتى أساسا من التماسك الذي تؤسسه الإرادة بين اللحظات.

سنة 1938، صدر المؤلفان اللذان دشنا المسلك الثاني لعمل باشلار ونعني بذلك:

---

(10) أنظر في هذا السياق مقالة الباحث التونسي رضا عزوز "الزمان عند باشلار" والتي وردت أصلا باللغة الفرنسية في:

"Bulletin de l'association des amis de Gaston Bachelard", N° 2, 2000 , p. 21-27.

وقمنا بترجمتها إلى اللغة العربية ضمن نصوص كتابنا "غاستون باشلار: عقلانية حالمة". فمفهوم باشلار للزمان يشكل وبالمنحى الذي أخذه في سياق السجال مع برغسون خاصة وأنصار نظرية الزمان المتواصل عموما ثابتا معرفيا أساسيا يسعى إلى استكشاف المعطيات المفهومية الأساسية المباشرة وغير المباشرة للتصور الباشلاري. زمان باشلار هو: الكائن/اللحظة/الانفصال/العزلة/ الإبداع والخلق/الفعل المقتحم/الحلم/القراءة السعيدة ....

* تشكل الفكر العلمي: (La formation de l'esprit Scientifique)، الذي أدخل مفهوم العائق الابستمولوجي.

* التحليل النفسي للنار: (La psychanalyse du Feu)، حيث بدأ باشلار الشق الثاني من مشروعه بتأكيده على أن العناصر الكوسمولوجية الأربعة: النار والأرض والهواء والماء، تشكل حقا هرمونات للخيال[11]. فهذه القوى الجوهرية عبارة عن مثيرات حلمية، عمل الشعراء على نقلها من مستواها السطحي المبتذل إلى أفق حالم. وقد شكلت بالنسبة لباشلار، مدخلا منهجيا لتوظيف مجموعة من النصوص الشعرية امتدت من الرومانسية الألمانية والإنكليزية إلى السوريالية. جعله ذلك، يقول في آخر حياته: «كل شيء سار شيئا ما بشكل أفضل في حياتي العملية، حينما رأيت أنه بإمكاني ويجب علي أن أعيش حياتين»[12]. أي مسار العلم بصياغاته المجردة وكذا إيحاءات القصيدة.

مع تشكل الفكر العلمي، انفتحت وجهة جديدة للبحث

---

(11) إذا كان باشلار قد أحدث ثورة كوبرنيكية من خلال قلب العلاقة التي رسخها التحليل النفسي مدة طويلة بين الخيال من جهة والذاكرة والإدراك من جهة ثانية، ثم دعوته إلى دراسة الخيال في ذاته دون النظر إليه كبعد تأويلي كما يفعل التحليل النفسي، فإن دراسته لعلاقة العناصر الأربعة بالخيال تشكل ثورة ثانية في مسار الدرس الباشلاري.

(12) "Fragments d'une poétique du feu", 1988, P: 34.

في العلم، تؤسس للخطإ وليس فقط للحقيقة ثم للخيال والعقل معا. وفي التحليل النفسي للنار دشن باشلار اتجاها للعمل سيجعل من الخيال موضوع بحث مستقل، وبالتالي شكل انفتاحا جديدا للانتباه الفلسفي.

في الأربعينيات ومع ظهور الظاهراتية وكذا وجودية سارتر الملتزمة كان موقف غاستون باشلار على الشكل التالي: سيحافظ حيال الفينومنيولوجيا على وضع هو بالأحرى مزدوج، يصف نفسه إراديا كفينومينولوجي، لكنه سينتقد بصرامة الفينومينولوجيا الجامعية وسيهتم بتمييزها عن فينومينولوجيا هوسرل (Husserl) «ستقدم سوزان أطروحتها الجامعية حول هوسرل»[13].

يقول باشلار: «إذا تعقبنا إذن، الفكر العلمي في عمله الحالي، ومن خلال هذا النشاط الثنائي العقلاني والتقني، سنرى اشتغال نوع من الفينومينولوجيا بالقوة، تجهل أهميتها أحيانا من قبل الفينومينولوجيا المعاصرة والتي يظهر بأنها فقدت الصفاء الهوسرلي»[14]، وقد وجد باشلار بالفعل في المبدإ الظاهراتي، الذي يقوم على القصدية وحصول الوعي

---

(13) سوزان باشلار المولودة سنة 1919، وهي الابنة الوحيدة التي خلفها غاستون باشلار بعد زواجه الأول والأخير من "جان" (Jeanne) التي توفيت سنة 1920.

(14) *L'activité rationaliste de la physique contemporaine*, 1949, P: 2.

بشيء ما، المنهج الممكن والمحتمل للدفاع عن ما حاول باشلار التنظير له في الأعمال الأخيرة من حياته ونقصد بذلك: أولانية الصورة وحداثتها[15].

أما الالتزام بمفهومه السارتري مع ظهور "الوجود والعدم" سنة 1943، فقد أخذ فهما آخر عند باشلار، عبر عنه في أحد دروسه الأخيرة قائلا: «هناك التزام أبدي وبشكل جذري للكائن الذي يكتب، أكثر من الذي تكلم عنه سارتر. أنطولوجيا اللغة تقتضي أنطولوجيا القول المكتوب. يوجد التزام جسدي في الجزء المكتوب لإنسان ما»[16]. لقد وجد باشلار نفسه ملتزم جسديا في الحرب العالمية الأولى وبالتالي أعطى مقياسا للالتزام الجسدي في مقابل السياسي. أما "سارتر" فقد أعلن في كتابه "الوجود والعدم" عن "تحليل نفسي للأشياء"، محيلا في ذلك على مؤلفات باشلار الأولى التي خصصها للمتخيل. يقول في هذا الصدد: «وهو ما حاوله السيد باشلار بكثير من الموهبة في كتابه الأخير "الماء

(15) منطلق المشروع الباشلاري، يتوخى النظر إلى الصورة كحقيقة أولانية غير مسبوقة بأي تحديد قبلي. فالصورة تدرك في ذاتها وفي كينونتها من خلال حضورها في الوعي: تخلق ذاتها باستمرار، تعمل على تجاوز ممكنات إنتاجها الآني. انظر في هذا السياق مقالة غاستون باشلار "الصورة الأدبية" التي ترجمناها كذلك في كتابنا السالف الذكر.

(16) Jean Lescure, *un été avec Bachelard.*

والأحلام". وعود كبيرة في هذا العمل. وبشكل خاص، إنه اكتشاف حقيقي ذلك المتعلق بالخيال المادي»[17]. لكن خداع هذه الإطراءات ظهر سريعا: «الحق يقال، هذا المفهوم للخيال لا يرضينا ولا حتى محاولة البحث وراء الأشياء ومادتها اللزجة الصلبة أو السائلة، عن الصور التي "نسقطها عليها"»[18].

الشعور الفعلي بالتقدير والاحترام، تجلى عند الظاهراتي موريس ميرلوبونتي (Maurice Merleau-Ponty) زميل باشلار، حينما تبين له عام 1952 احتمال تنافسه مع باشلار في الترشح لـ "كوليج دو فرانس" (College de France). وحين: «علم بأنهم يطلبون باشلار بإلحاح، بعث إليه برسالة لطيفة جدا يقول له فيها بأنه يجهل كونه أي باشلار، يمكنه توخي الذهاب إلى الكوليج. وبالتأكيد، مع معرفته بذلك فقد سحب ترشيحه[19].

بعد سنوات الحرب، ظهر المتخيل (L'imaginaire) كموضوع مستقل للبحث. في سنة 1947، شرع شاب مبرز في الفلسفة اسمه "جيلبير دوران"، بمباشرة مجموعة من

(17) Jean Paul Sartre, *l'être et le néant*. Gallimard, Paris, 1943, P: 690.

(18) Ibidem.

(19) Jean Lescure, op. Cit, P: 39.

الأبحاث تحت إشراف غاستون باشـــلار انتهت بإصدار عمله المتين: الأبنـــية الانـــثروبولوجـــية للمـــتخـــيل (structures anthropologiques de l'imaginaire). سنوات بعد ذلك، ينشئ جيلبير دوران بجامعة شامبري، " مركز البحث في المتخيل" (Le centre de recherche sur l'imaginaire). ومن خلال المنافسة التي سيخلقها هذا المعهد، ثم احتراما لمرور باشلار في ديجون (Dijon) فإنه أثار عند جامعة "بورغون" «Bourgogne» مسألة إنشاء "مركز غاستون باشلار للأبحاث في المتخيل والعقلانية" (Centre Gaston Bachelard de recherche sur l'imaginaire et la rationalité)

1953، كانت السنة التي أصدر فيها باشلار آخر كتبه الإبستمولوجية ونقصد بذلك المادية العقلانية (Le matérialisme rationnel). والذي سيثير في المستقبل تأويلات كثيرة صدرت في مجلات فلسفية. في هذا السياق مثلا أكد ريمون روير في مجلة "الميتافيزيقا والأخلاق"، بأن باشلار يأخذ كلمة "مادية" في إطار معرفة علمية بهذه المادة أكثر من كونها: «نظرية فلسفية تكون بحسبها المادة جوهرية»[20]. ذلك أن مادية باشلار ليست بنظرية ولا فرضية فلسفية وإنما هي تعبير عن حالات واقعية دقيقة ومحددة: «يظهر من خلالها

---

(20) *Gaston Bachelard: un rationaliste romantique*, P: 22-23.

تطور ذكاء الأشياء وتنميق الاستراتيجيات المستعملة من أجل الوصول إلى فهمها»[21]. فحينما يلتزم باشلار بالدرس المخصص للمادية، فإنه يتوخى نقل أسئلة العلميين إلى حقل التجربة حيث هنا تأخذ ماديته نموذجها. ويضيف ريمون روير بأن هذه المادية لا تتعارض قط مع الخيال.

أما "جون هيبوليت" في "المجلة الفلسفية لفرنسا والخارج"، فقد أكد بأن السمة الظاهرة لعمل باشلار تتجسد أساسا في الثنائية المفهومية المميزة لعمله. ويقصد بذلك: الابستمولوجي والشعري[22]. وانطلاقا من ذلك ينبغي التأمل من أجل كشف المنبع الوحيد الذي يتأتى منه المنحدران. ويحدد هذا المبدأ "كمشروع لانفتاح تكاملي" حيث تطورت الابستمولوجيا والقصيدة انطلاقا من نفس الفكر وكذا المشروع المتخيل. وهي مسألة قادت هيبوليت إلى القول بأن الخلفية التي شكلت سندا لباشلار تقوم على الرغبة في تأسيس "نظرية للخيال المبدع"؛ يقول: «فإن هذا التقسيم للخيال، كان قد بدأ مع كانط وفخته ـ طبق في القصيدة من

---

(21) IBIDEM.

(22) انظر بهذا الصدد مقالة جون هيبوليت:

- "Gaston Bachelard ou le romantisme de l'intelligence", in *revue philosophique de la france et l'étranger*, 144, 154, P: 85-96.

قبل نوفاليس ـ حينما بحثا بخيال منتج حتما ومتعال عن مشروع للوجود[23].

جورج كانغليم (G.canguillem) الذي سيخلف باشلار في السوربون وكذا في "معهد تاريخ العلوم والتقنيات"، أصدر عام 1955 كتابه: *(La formation du concept de réflexe aux XVII et XVIII siècles)* وقد أهداه إلى باشلار. وفي السنة نفسها كذلك توفي ألبرت انشتاين (Albert Einstein) عن عمر يناهز 76 سنة. وكتب موريس بلانشو (Maurice Blanchot) كتابه: (L'espace littéraire). كما أن الفلسفة الباريسية هي منذ الآن في معظمها وجودية ملتزمة. وسيخبر ريمون أرون (Rymond Aron) عن النتائج الضارة في: (L'opium des intellectuels). أما كلود ليفي ستراوس (claude levi-Strauss) فقد ظهر له عمله (Tristes Tropiques) في حين قام ريمون كينو (Raymond Queneau) بتدوين دروس كوجيف حول هيجل.

كتب كانغليم عام 1963 قليلا بعد موت باشلار 6 تشرين الأول/ أكتوبر 1962: «مع تجديد عميق بشكل نادر جدا لمعنى تاريخ العلوم، بإخراجه من وضعيته والتي هي إلى ذلك الحين تابعة، ورفعه إلى مقام درس فلسفي من الدرجة الأولى، فإن غاستون باشلار قد فتح بذلك طريقا أكثر من

---

(23) "Gaston Bachelard: Rationaliste romantique", P: 25.

كونه قد رسخ مهمة»[24]. وفي مكان آخر يضيف كانغليم: «التمهيد ابتداء من 1968-1976 لمفهوم الإيديولوجيا العلمية في مهنة التدريس أو بعض المقالات والمحاضرات، تحت تأثير أعمال ميشيل فوكو ولوي ألتوسير، لم يكن فقط سمة إذعان يمنح لهذه المساهمات الأصلية في أدبيات تاريخ العلوم. إنه طريقة تجديد، دون استبعاد درس أستاذ قرأت كتبه لعدم إمكانية متابعة الدروس، فإن نص غاستون باشلار من خلال بعض الحريات التي يحملها قد عمل على إلهام وتقوية زملائي الشباب»[25]. ربما كان هذا كذلك تعبيرا عن الصدق والجدية المميزان لإشتغالات باشلار حيث تجلى ذلك في 19 كانون الثاني/يناير 1955 مع درسه الأخير بالسوربون قائلا: «لن أترك هذه السوربون بقلب مبتهج. لقد وهبت نفسي للتدريس»[26]. وربما هذا الحس الأخلاقي المتميز هو ما أعطى لغاستون باشلار قوته وأصالته وفرادته، من بين كل

---

(24) Ibid p: 28. voir aussi, G.Canguillem: *«L'histoire des Sciences dans l'œuvre épistémologique de Gaston Bachelard»* in *annales de l'université de paris* 1963, p:24-39.

(25) "Gaston Bachelard, Un Rationaliste romantique", P: 28-29.
وفي هذا الصدد تنبغي الإشارة إلى مقالة جورج كانغليم: «الإيديولوجيا والعقلانية في تاريخ علوم الحياة» باريس، 1977.

(26) Jean Lescure, op cit, P: 208.

ما أنتجته الفلسفة الفرنسية على امتداد القرن العشرين كما يعتقد جون ليبيس.

شاذ وأحيانا بوليميكي. فإن غاستون باشلار يلامس الكتابة بسعادة حيث يعرض مجموعة من الومضات أكثر من كونها تآليف، ورغم رفضه للحذلقة فإنه يرصع أسلوبه بإحالات إبداعية. يستشهد بـ يونغ ويفضله كثيرا على فرويد كما يستحضر نيتشه وشوبنهاور أكثر من كانط وادموند هوسرل. وبالرغم من أستاذيته وتكوينه في الفيزياء الكيميائية، فإنه أعلن صراحة أن على الفلسفة: «دراسة الإنسان الأدبي، لأن هذا الإنسان هو حصيلة التأمل والتعبير وكذا الفكر والحلم»[27].. لذلك عمل على تنميق كتبه بانبثاقات شعرية متعددة استعارها من الشعراء الأكثر انتقاء، كما خصص مونوغرافيا للشاعر العجائبي ايزودور دوكاس (Isodore Ducasse) المعروف بـ "الكونت دولوتريامون" والذي ترجع إليه الأصول الأولى للاتجاه السوريالي. ثم إن هذا العقلاني النشيط، صاحب العقل الابستمولوجي المدقق لا يتردد في: «سبر ما يسميه بـ "نباتيتنا العميقة". حيث تجد الحيوية المتدفقة لديناميتنا المتخيلة جذرها. ألسنا حقا "نباتات جد هرمة"»[28].

---

(27) "L'air et les songes", librairie José Corti, P: 302.

(28) "Gaston Bachelard, un rationaliste romantique", P: 32-33.

لا شك أن قارئ غاستون باشلار ستثيره القطبية الثنائية التي تخترق عمل الفيلسوف وتحدث فيه توترا داخليا ساحرا، وكأنه يعبر عن أسطورة أندروجين (L'androgyne)[29]. حيث تتضح بامتياز الإحالة على الثنائية السيكولوجية المؤسسة لكل ذات إنسانية ونقصد بذلك: الأنيما والأنيموس، أي تآلف الجانب الذكوري والأنثوي في التأمل الفكري والممارسة الحسية والذي يجد تعبيراته الابستمولوجية في المفهوم والصورة[30]. وبمعنى آخر فإن المشروع الباشلاري، حاول تأسيس نظرية متكاملة شاملة تلامس مجموع الاشتغالات الإنسانية، سواء في جانبها العقلاني المجرد كما تبلور مع العلوم المنطقية والصورية، أو الشق الآخر المرتبط بالأحاسيس الجمالية والفنية والذي تتسامى به القصيدة الشعرية إلى مستوى آخر.

---

(29) يؤكد باشلار بأن مدرسة يونغ المهتمة اكثر بعلم نفس الأعماق هي التي بينت من بين كل مدارس التحليل النفسي بأن النفسية الإنسانية في بدايتها (Androgyne). وانطلاقا من ذلك بلورت الدراسات اليونغية مفهومين أساسيين هما: الأنيما والأنيموس؛ وقد استثمر باشلار ذلك ليؤكد أطروحة مفادها أن أحلام اليقظة تؤسس نفسها تحت شارة الأنيما .حيث تأخذ ذلك البعد الأنثوي الذي يعطيها عمقا وبهجة.

(30) ثنائية المفهوم والصورة تمثيل مباشر على المستوى المعرفي للأنيموس والأنيما.

وإذا كان التحليل النفسي للنار (La psychanalyse du feu)[31] قد شكل العمل المفصل بين لحظتي اشتغال باشلار، فإن أعماله الأخيرة:

1- شاعرية حلم اليقظة (La poétique de la rêverie)[32].

2- شعلة قنديل : (La flamme d'un chandelle)[33]

3- شاعرية المكان: (La poétique de l'espace)[34]

---

(31) يحاول باشلار في حقيقة الأمر من كتاب "التحليل النفسي للنار" متابعة نفس البرنامج الذي وضعه لنفسه في كتاب "تشكل الفكر العلمي"، ألا وهو القيام بتحليل نفسي للمعرفة وإظهار بعض العوائق الإبستمولوجية التي تعرقل الإدراك السليم والموضوعي للأشياء ومن بينها ظاهرة النار.

(32) صدر عام 1961، وقد توخى باشلار من خلاله دراسة حلم اليقظة (La rêverie) انطلاقا من صياغة منهجية جديدة حاولت تبني المنهج الظاهراتي في مقاربة الصورة الشعرية حيث يعتقد بأن الخاصية الأنطولوجية للصورة تفترض منحى جديدا في الصياغة المفاهيمية، مادام أن الرؤى التقليدية كانت تفقد الصورة كل بعد من أبعادها الأساسية.

(33) يشكل هذا المؤلف آخر أعمال باشلار، والذي حاول من خلاله مواصلة تبني المنهج الظاهراتي في قراءة الصورة الشعرية مركزا على التأملات التي يحصل عليها الحالم وهو يجلس بالقرب من شعلة (Flamme).

(34) يشكل بالفعل هذا العمل التجربة الأولى التي قام بها باشلار في اشتغالاته على المنهج الظاهراتي حيث ظهر عام 1957 وحدد طبيعة

تمثل تطويرا نظريا ومنهجيا لفينومينولوجيا المتخيل بالشكل الذي تصوره باشلار منذ بداية اهتماماته النقدية والأدبية حيث تأمل الأنيما: «يتمدد بإعطاء نفسه سيرا حرا، وحيث عمل الابستمولوجي يتم استحضاره فقط كمهمة متجاوزة، وهذا الشيء كان مقصودا»[(35)]. بل أن "جون ليبيس" يضيف فضاء باشلاريا آخر حينما يتحدث عن ما سماه بـ "باشلار ثالث" يتأمل ميتافيزيقا الزمان[(36)].

لاشك أن أكثر الأعمال التي ألفها باشلار تقوم على الرؤية الابستمولوجية، إلا انه لم يفكر كلاسيكيا في المنهج وكذا سيرورة الفكر العلمي، بل سيوظف مفهوما أصليا ومعقدا للعقلانية. وظهر الفيلسوف منشغلا بالكيفية والمعنى

- القطيعة التي سيحدثها باشلار مع تجربته السابقة .وقد سعت الظاهراتية الباشلارية إلى مقاربة المكان لا كظاهرة هندسية، ولكنها ستجعل للذات مركزية كبرى في إعطاء هذا المكان ديناميته الخاصة .فالمكان يتحدد من خلال وعينا به.

(35) "Gaston Bachelard: un rationaliste romantique", P: 34.

(36) وكما أشرنا إلى ذلك سابقا فإن باشلار وضع تصوره للزمان من خلال العملين التاليين:

- *L'intuition de l'instant, étude sur la siloé de Gaston Roupnel Stock*, Paris 1935.

* *La Dialectique de la durée*, P.U.F, Paris 1936.

وذلك في أفق دحض النظرية الاستمرارية البرغسونية.

اللذين من خلالهما يمكن أن يكون للعلم قضية إسمها "الواقع"(*). كما أن اختراق العقلانية العلمية للواقع ومن خلال الالتزام بممارسة علمية تؤدي إلى استبعاد الحدس الأولي وكذا الفكرة المجردة المتخيلة، أي تبني استراتيجية ما يسميه باشلار نفسه بـ"التفلسف المتعدد" (polyphilosophisme) مقترحا علينا رسما غير مكتمل للحقيقة ما دام: «أن تاريخ العلوم هو تاريخ إخفاقات اللاعقلانية»[37]. فالعقل ذاته يتهذب ويتشكل في كل لحظة من خلال المجابهة التي يقيمها مع التجربة. ذلك ما سعت إلى إظهاره سلسلة الأعمال الباشلارية ابتداء من "الفكر العلمي الجديد" 1934 إلى "فلسفة النفي 1940". لن يمتد العقل في نسقية مكتملة بل يمارس وظيفته بشغب وعدوانية. يقول باشلار: «يجب إذن، على الابستمولوجي إدراك التركيب المتحرك تقريبا للعقل والتجربة، حتى ولو قدم هذا التركيب نفسه فلسفيا كقضية يائسة»[38]. أما "جون ليبس" فيؤكد بأنه: «إذا أمكن لفرانسوا داغوني (François dagognet) أن يقول عن هذه الابستمولوجيا فضلا عن كونها سعيدة، بأن لها بعدا

---

(37) *L'activité rationaliste de la physique contenporaine*, P: 27.

(38) *Le nouvel esprit scientifique*, quadrige, P.U.F, P: 20.

دراماتيكيا، فإنه بهذا المعنى تبقى في الآن ذاته منفتحة، ومتحركة وسجالية»[39].

لن يتوقف باشلار عن التهكم حين سيطرح قضية "فلسفة الفلاسفة" وطموحاتهم للتقعيد للعلم وتخصيصه بإطارات منهجية متعالية، حيث سيضع في مقابل البداهة الجوهرية لـ"أنا أفكر" وكذا صلابة المقولات الكانطية، سيرورة عقلانية لا تنفصل عن الأشياء المؤسسة علميا،مما يؤكد بأن العمل العلمي المرتبط بالفكر الجديد لا ينفصل عن التاريخ وكذا السجال. لهذا ففلسفة النفي تشكل العنوان الرمزي لبيانات تغتني بالإنكار المتوالي للحقول الابستمولوجية السالفة. يقول باشلار: «النظرية التقليدية لعقل مطلق وثابت ليست إلا فلسفة. إنها فلسفة منتهية»[40]. وفي سياق عرضه دائما لمقولاته المشوشة لهذه "المافوق-عقلانية" فإن غاستون باشلار سيصدر كتابه "تشكل الفكر العلمي1938" وسيرفقه بعنوان فرعي يقوم على فكرة التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية[41]. وسيتم الوقوف عند مفهوم جوهري هو

(39) "Gaston Bachelard, un rationaliste romantique", P: 39.

(40) *La philosophie du non*, P.E.F, P: 145.

(41) استعمل باشلار إذن، كلمة التحليل النفسي أول مرة كعنوان صغير لكتابه "تشكل الفكر العلمي" حيث ارفق ذلك بقوله "مساهمة في التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية " وذلك لمعرفة العوائق والعقبات الابستمولوجية ثم الأخطاء والعقد التي تعرقل تطور هدا الفكر.

"العائق الابستمولوجي" الذي شكلت خصوبته بذرة لمجموعة من الأبحاث كتلك التي أنجزها: ميشيل فوكو، وجورج كانغليم، ولوي ألتوسير. استثمر باشلار في هذا العمل التحليل النفسي الفرويدي لكن بطريقة غير ارثوذوكسية لأنه ظل يأخذ مسافة مع جهازه المفهومي، لكن ذلك لم يمنعه من الاستشهاد بمفاهيم: اللاوعي والكبت والتسامي والليبيدو.... ويؤكد "جون ليبيس" بأن: «الحوار مع التحليل النفسي، امتد إلى المسودات الأخيرة. ذلك انه بالنسبة لباشلار فإن الفكر الإنساني يخترقه منطق يشتهي، والذي هو مع ذلك الأساس القديم لكل إنتاجاتنا المتخيلة. هكذا ستتموضع الثنائية التي ستكون في قلب مساره اللاحق»[42].

تبلورت العقلانية الباشلارية التي وضعت قبل ذلك فلسفة النفي *(la philosophie du non)* بشكل نهائي في الثلاثية

= ينطلق باشلار من قناعة أن الفكر العلمي مر في ثلاثة مراحل:
-المرحلة ما قبل العلمية(pré-scientifique): وتشمل العصر الكلاسيكي وعصر النهضة ثم المنظومة الفكرية للقرنين 16 و17 ثم الثامن عشر.
-المرحلة العلمية – scientifique l'état ويمثل لها باشلار بأواخر القرن 18و19 ثم بدايات القرن العشرين.
-مرحلة العقل العلمي الجديد: وتبتدئ عام 1905 حينما ظهرت النظرية النسبية التي عملت على تغيير وإعادة النظر في أسس العلم الكلاسيكي.

(42) "Gaston Bachelard: un rationaliste romantique", P: 43.

الكبيرة لسنوات الخمسينيات.حيث سيؤكد باشلار أن سيرورة حركة العقلانية العلمية هي المؤهلة لإنتاج ابستمولوجيتها. كما أن العقل العلمي يخترق المادة نفسها مستبدلا الظاهرية المعطاة بظاهرية تقنية (phénomenotechnique) مؤسسة ومنظمة. ذلك أن فكرة المادة كما بحثتها الفلسفة المثالية في الغالب جعلت باشلار يقتنع بأن قطب اللاعقلانية الذي يحيط بهذا المفهوم يتم اختزاله دائما بعمل العلمية (la scientificité). يضع العلم المعاصر رسما تخطيطيا يتابع بشكل دقيق صيرورة الأشياء وجدليتها، مما يؤدي إلى انهيار اليقينيات إلى حد: «يمكننا معه أن نتساءل مع بيير كيليت (Pierre Quillet). إذا لم يكن باشلار قد شيد أمامنا محاكمة لـ"المعرفة المطلقة"؟»[43].

الإطار الثاني من المشروع الباشلاري والمتعلق بتحرير المتخيل، يمكننا موضعته تحت إشارة الأنيما (anima). حيث تحول معه باشلار جذرياً من دراسة تاريخ العلم إلى اختراق فضاءات القصيدة. ولربما شكل المحيط الوثائقي لكتاب "تشكل الفكر العلمي" مثيراً وحافزا لمثل هذا الاشتغال. تقول شهادة باشلار نفسه: «حينما انتقلت من تجربة تدريس العلوم إلى الفلسفة، لم أحس بأنني سعيد كلياً كما كنت أتوخى. بحثت بلا جدوى عن مبرر عدم رضاي إلى اليوم

---

(43) Ibid, P: 45.

الذي سمعت فيه طالبا يتكلم عن عالم مبستر، وذلك في المحيط المألوف للأعمال التطبيقية بكلية ديجون. لقد كان ذلك إضاءة بالنسبة لي. حيث الأمر إذن، هكذا: إن إنساناً لا يمكنه أن يكون سعيداً في عالم معقم، يجب علي بالأحرى العمل على تفريخ وتكثير الميكروبات فيه حتى أنقل إليه الحياة. سارعت إلى الشعراء وتموضعت في مدرسة الخيال»[44]. فالعلم نفسه لا يمكن أن يقوم إلا على جوهر متخيل، ولهذا فمحور الوضعنة (objectivation) يجب أن يشتغل مع منظور الذاتية الذي يؤسس بشروده المادة الأولية. يقول باشلار: «إن محاور القصيدة والعلم هي أولاً، متعارضة. كل ما يمكن أن يطمح إليه الفيلسوف هو جعل القصيدة والعلم متكاملين، وتوحيدهما كمتعارضين محكمين. يجب إذن، أن نقابل الفكر الشاعري البواح (expansif) مع الفكر العلمي الصموت (taciturne) والذي بالنسبة إليه فإن النفور السابق هو احتراس سليم»[45].

وقد شكل كتاب التحليل النفسي للنار المقدمة النظرية والمنهجية لهذا الرباعي الكوسمولوجي: النار والماء والهواء والأرض. عمل باشلار/الشيخ على وضع رسمه المنجز، انطلاقاً من النار إذن، هذا الشيء المتخيل بامتياز، والغائب

(44) Ibid, P: 47.

(45) *La psychanalyse du feu*, idées N.R.F, P: 10.

عن اهتمامات العلم المعاصر. سيكرس باشلار أعماله بشكل متوالٍ للماء والهواء والأرض وستظهر مع ذلك استراتجيات مدهشة لبحث جديد: «في الوقت نفسه الذي ستوحي به سراً بجوانب كاملة من الحساسية الباشلارية وكذا فاتحة ميتافيزيقا للعزلة: وصف الماء باعتباره خطاطة لكل سوداوية ولكل حلم يقظة مميت، والتمجيد النيتشوي لشجرة فوق هاوية، والاستكشاف الحميمي لسراديب تحت أرضية وكذا لمتاهاتنا الداخلية[46]. وقد وظف الفيلسوف في سبيل هذه المغامرة الجديدة مئات الكتب الأدبية والشعرية، وذلك لملامسة مفهومه للخيال والتقاط أسسه النظرية في أفق وضع استراتيجية مسار آخر للبحث. في هذا الإطار سيتم مع كتاب "الماء والأحلام" الإعلان عن ثلاث أطروحات أساسية، ستؤسس كل المشهد الباشلاري

1-عدم إمكانية اختزال الخيال إلى الإدراك أوالذاكرة. يستتبع ذلك التأكيد على أن الصورة ليست إعادة إنتاج ثانية.

2-حلم اليقظة الذي يتمحور حول الصورة، ينتج فلسفة للسعادة وبالتالي سيدخل الفكر الباشلاري مبدأ اللاواقع، بعد أن كان هذا الأخير في أدبيات التحليل النفسي الكلاسيكي مرادفا للعصاب.

---

(46) "Gaston Bachelard, un rationaliste romantique", P: 49.

3-التحليل النفسي غير مؤهل لإدراك دينامية الصورة ولا لإدراك قوتها التحريرية المبدعة والخلاقة.

كما ستظهر نظرية أخرى من خلال الأعمال المكرسة للعناصر الأربعة في فحواها العام. على أن المسار المتميز للخيال يوجد في قلب المادة المتخيلة نفسها من خلال البحث المحايث والباطني وليس السبر الأفقي على سطح الأشكال. تصبح المادة إذن، في المنظور الباشلاري منظمة بالعقل الابستمولوجي، يطابقها منظور مادة حلمية حقيقية تتبلور صورها الأسطورية الأدبية والشعرية من أجل استكشاف داخليتها، مبدعا كتابة جديدة حتى يدرك هذه الألفة التي تحمله تجاه الصور مع تمييزها في الآن ذاته عن المفاهيم والمجازات وكأن فلسفة غاستون باشلار: «تشكل مقدمات لكل ميتا -أدب مستقبلي يسعى إلى الظهور كفن للحياة»[47].

إن ظهور كتابي شاعرية المكان (la poétique de l'espace 1957) وشاعرية حلم اليقظة (la poétique de la rêverie 1959)، سيعطيان لتجربة نظام الصورة بعدا أكثر عمقا وتحررا، وستتم القطيعة بشكل نهائي مع التحليل النفسي، وتبني باشلار مطلقا للمنهج الظاهراتي، لأنه القادر على تمثل الصورة في أبعادها الحلمية وقوتها الإبداعية وكذا تعدديتها الإيحائية. يقول في هذا الإطار: «نطلب من قارئ القصائد

(47) Ibid, P: 53.

أن لا يأخذ صورة ما كشيء بل وحتى بديلا عن هذا الشيء. ولكن أن يتناولها في حقيقتها النوعية. لذلك عليه الربط منهجيا بين فعل الوعي المانح (donatrice) بإنتاج الوعي الأكثر زوالا أي: الصورة الشعرية»[48]. وسيكون كل مسار باشلار اللانهائي هو ملاحقة هذا اللاشيء. وحدها القراءة تمكن القارئ والمبدع على السواء من التقاط هذا المنفلت باستمرار. لذلك لم يتوقف باشلار عن أن يحدد نفسه كقارئ شره (boulimique) حيث يشبه عالمه المتخيل خزانة ضخمة جدا.

إن حلم اليقظة وهو يتوسط بقراءة الشعراء، سيتحول في لحظة إلى موقف فلسفي، في هذا الصدد يمكن أن ندرج "كوجيتو الحالم" (cogito du rêveur) الذي سيطوره باشلار في فصل مهم من كتابه "شاعرية حلم اليقظة". فالإحالة على ديكارت هنا لن تكون إلا من أجل لاديكارتية هذا الكوجيتو الجديد. فالعالم إذن، يؤكد باشلار: «ليس تمثلا لي إنه بالأحرى رغبتي. يجسد إلى أبعد حد كل كيفيات فعل "سكن"»[49]، وبالتالي صلة الوجود بوظيفة ذهنية متأملة، تتأكد معها الدعوة الجمالية للمتخيل، حيث يكون الأدب

(48) *La poétique de l'espace*, P.U.F, P: 4.

(49) "Gaston Bachelard, un rationaliste romantique", P: 57.

مفتاحا للكون الباشلاري، بقدر كون الصورة تمهد لإبداع الجمال.

بين نشاط عقل مضطرب والرغبة الجشعة تجاه الصور، يقوم نوع من التوتر الخصب وكذا عقدة أسئلة منفتحة. لكن في الحقيقة نسيء إلى عمق الفكر الباشلاري إذا توخينا اختزاله إلى منحدريه الأكثر بروزا، بين الدعوة الابستمولوجية من أجل هدم اللاعقلانية انبجاس المتخيل (l'imaginaire): «يروق للفيلسوف أن يكرر بأنه ليس خاضعاً لبعد زماني ولا لمبدإ العلية. هناك حقاً مكان لبروز طريق ثالث. هذا الأخير يتمظهر بشكل خفي اكثر وكشذرات من خلال ما يمكن تسميته بفلسفة للعزلة»[50]. وقد دشن باشلار هذا المسار الآخر قبل أن يعرض مسألة الخيال ونقصد بذلك أطروحته المخصصة لقضية الزمان بين عامي 1932-1936، معلناً بأن تأمل الزمان يمثل أولاً وأخيراً المهمة المقدماتية لكل ميتافيزيقا. وقد أشرنا إلى السجال الذي أقامه ضد "برغسون" في أفق هدم كل انطولوجيا للإمتلاء: «فالأطروحة الأساسية للفيلسوف هوأن الوجود اقتلاع دائم، استعادة وبداية ثانية: انبثاق الكائن في حداثته.... ليس "إلا العدم هو الذي يكون متواصلا"»[51]. في المسار الثالث الأقل ظهورا، يوجد

(50) Ibid , P: 60.

(51) Ibid, P: 62.

باشلار في الآن ذاته بين ميتافيزيقا الزمان، التمرن على العزلة التي تستبطن الرسوم الأولية لصنف من الانطولوجيا السالبة. وكأن باشلار يدرك بأن الفرد لكي يتحول إلى فيلسوف عليه الإحساس: «بأزمة لا تؤثر فقط في الذات ولكن كذلك في المقولات التي استعملتها الفلسفة إلى حد الآن للتفكير في صلتها بالعالم»[52].

(52) Ibid, P: 47.

القسم الثالث

متابعات

* حوار مع الباحثة الأميركية: تيريزا كاستيلاو- لاولس.

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

https://twitter.com/SourAlAzbakya

https://www.facebook.com/books4all.net

ولدت تيريزا كاستيلاو-لاولس في مدينة لشبونة بالبرتغال. حاصلة على شهادة الميتريز في الفلسفة من جامعة لشبونة، ثم الميتريز والدكتوراه في دراسات العلوم والتكنولوجيا من جامعة فيرجينيا ثم أستاذه بجامعة ميشيغان (Michigan) بالولايات المتحدة الأميركية، حيث تدرس فلسفة العلم وتاريخ العلم والإبستمولوجيا والإتيقا والعلم والدين. اهتماماتها في البحث تشمل تاريخ العلم في القرن 17 والإبستمولوجيا الفرنسية ثم سوسيولوجيا العلم. عضو نشيط في جمعية أصدقاء غاستون باشلار، وقد أصدرت في هذا السياق بعض الأبحاث[1] التي تلامس فكر باشلار، خاصة

---

(1) صدرت للباحثة الأعمال التالية:

* "Phenomenotechnique in Historical, perspective: Its origins and implications for philosophy of science", *In philosophy of science. Volume 62,* Nomber 1, 1995.

* "La création et le développement de la phénoménotechnique dans l'oeuvre de Gaston Bachelard", *cahiers Gaston Bachelard, numéro 1,* 1998.

في جانبه الإبستمولوجي. وبهذا الصدد كان لنا معها هذا الحوار:

س/كيف جاءتكم فكرة الإنخراط والحصول على عضوية جمعية أصدقاء غاستون باشلار؟

ج/تم الأمر بعد دعوة من قبل "جون ليبيس" (Jean Libis) رئيس الجمعية لكي أقدم بعض العروض حول باشلار في فرنسا.

س/ما هو مصدر اهتمامكم بفكر باشلار؟

ج/إنه اهتمام قديم جدا. لقد قرأت بعض أعماله حينما كنت طالبة بجامعة لشبونة، ثم بعد ذلك قمت بتدريسه في المدارس الثانوية.

س/انطلاقا من أبحاثكم الخاصة، ما هي في رأيكم الملامح الكبرى والخاصيات النوعية المميزة لباشلار؟ أو بمعنى آخر، كيف تقدرون ثورة باشلار المفهومية سواء بالنسبة للفلسفة أو بالنسبة لتاريخ الفلسفة؟

= • "La philosophie scientifique de Bachelard aux Etats-Unis: son impact et son defi pour les études de la science", in *Bachelard dans le monde*, paris, PUF 2000.

• "La perception de l'oeuvre de Bachelard aux étas-Unis", In *Bulletin de l'association des amis de Gaston Bachelard, numéro 3*, 2001.

ج/أهم خاصية تميز هذا الفكر هي تعددية مجالات مقارباته: القصيدة، والنقد الأدبي، فولسفة العلوم، وفينومينولوجيا العناصر. إنه يشبه "رجل عصر النهضة". ما يثيرني في عمله هو أنني أجد دائما أشياء جديدة حينما أفتح كتبه. ومع أن فلسفته للعلوم لا تختلف مطلقا عن فلسفة "بوبر" أو "بولاني" أو "كوهن"، فقد كان الأول الذي اكتشف انفصالية الفكر العلمي المعاصر. ثم الحاجة إلى القيام بإصلاح للبيداغوجيا في الثانويات والجامعة من أجل تهيئ الطلبة للفكر العلمي وتطبيقاته. إن الجدة والشغف بالكتابة خاصيتان اساسيتان لفكر باشلار.

س/كيف تنظرون إلى الأعمال الحالية حول باشلار؟

ج/هناك أبحاث جيدة جدا تتعلق بباشلار ولاسيما في الخيال والأدب. إلا أنها توجد كلها تقريبا خارج الولايات المتحدة الأميركية وبالضبط في فرنسا وإيطاليا وإنكلترا. ليس هناك دراسات كثيرة حول فلسفته للعلم في فرنسا، لكن في إيطاليا نعم. وأنا واحدة من بين المشتغلين بهذا الشق من عمله.

س/انطلاقا من موقعكم الجامعي، نريد استفساركم عن مستوى حضور باشلار في الأطروحات الجامعية؟

ج/فيما يخص الولايات المتحدة الأميركية، ليس هناك من حضور دال. يمكنك بهذا الصدد العودة إلى المقالة التي

قمتم بترجمتها إلى العربية[2]، لكن رغم ذلك فإن مساحة البلد كبيرة بحيث أنني لا أعرف بالضبط هل يوجد بعض الباحثين الذين يهيئون أطروحات حول باشلار.

س/كيف تموقع الثقافة الأنكلو-أميركية فكر باشلار؟

ج/شيء من الصعب إظهاره. لأن أغلب أعمال باشلار المتعلقة بفلسفة العلم لم تترجم إلى الانكليزية مع بعض الاستثناءات في فترة الستينيات. إلا أنه مؤخرا قامت "Mary Mac Allester Jones" بترجمة كتاب جدلية الزمان وبعض الكتب في فلسفة العلوم.

س/ما هي حسب تصوركم نقاط الارتباط بين باشلار/الفيلسوف وكذا باشلار/الشاعر؟

ج/أنا متخصصة في الكتب المتعلقة بالإبستمولوجيا الباشلارية أكثر من نقده الأدبي. صحيح أن أسلوبه في الكتابة الإبستمولوجية شاعري جدا. لكن الأهم هو الوقوف عند تغير إبستمولوجيته بعد أن أثارت انتباهه القصيدة والعناصر. من بين الأعمال التي قدمتها في إيطاليا ـ ربما ستصدر عام 2004، هو أن الفصل الذي يتوخاه باشلار بين فلسفة العلوم والنقد

---

(2) تقصد بذلك مقالة للباحثة ترجمتها إلى اللغة العربية تحت عنوان "إدراك نتاج غاستون باشلار في الولايات المتحدة". وقد صدرت إلى جانب نصوص أخرى تتناول فكر باشلار ومن جوانبه المختلفة، في كتابنا "غاستون باشلار: عقلانية حالمة"، عن منشورات جريدة الآفاق المغربية بمراكش.

الأدبي لم يصل إليه في عمله. مثلا حللت وقارنت بين القاموس المفهومي لتجربة المكان في الفيزياء المعاصرة ثم شاعرية المكان فوجدت بأن اللغة متماثلة.

س/لقد أشرتم إلى أعمال معاصرة قيمة جدا خاصة في إيطاليا وإنكلترا هل يمكننا أن نعرف أكثر؟

ج/أحد الأعمال التي ساهمت بها في إيطاليا، كانت حول إبستمولوجيا باشلار. ثم أخذت بالمقارنة بين الفلسفات العلمية لكل من باشلار وبوبر (Popper) ثم بولاني (Polanyi). اهتم الإيطاليون بذلك كثيرا خاصة وأنهم يركزون على فلسفته العلمية. أما الفرنسيون فقد كان لهم نفس المسعى، لأنهم لا يقومون بدارسات كثيرة فيما يخص إبستمولوجيا العلم عند باشلار (يفضلون الشعرية)، لكنهم لم يستطيعوا إدراك أن هناك تماثل جد واضح بين هؤلاء الفلاسفة. يتجه اعتقاد الفرنسيين إلى أن باشلار هو الأصل حينما نقارنه بالفلاسفة الفرنسيين. كذلك لا يجب أن نصدق باشلار كثيرا حينما يقول: بأنه يخالف كل التقليد الفلسفي لعصره (مايرسون، دوهم، برغسون، كونت) لأنه توجد في الواقع كثير من أوجه التماثل بينه وبين هؤلاء.

س/نريد أن نعرف شيئا ما عن معهد دالاس للإنسانيات، وعمله فيما يخص باشلار؟

ج/لا أعرف أي شيء عن المعهد باستثناء مسألة اهتمامه بغاستون باشلار/الناقد الأدبي. وهي معلومة حصلت عليها من

قبل "Mary Mac Allester Jones" والتي أصدرت كتابا حول باشلار بالتعاون مع المعهد.

س/ فيما يخص عملكم المتعلق بالترجمة والمقارنة، هل مازال مشروعا أم بالفعل تطورت مراحله؟

ج/ عمل الترجمة لم يأخذ طريقه بعد. أتوخى بالفعل ترجمة "المادية العقلانية" وأنا في إطار البحث عن ناشر ربما في إنكلترا، حيث الاهتمام بمعرفة عمل باشلار أكثر مما هو الأمر مع الأميركيين. لقد ترجمت حديثا الباحثة الإنكليزية «(Mary Mac Allester Jones)» كتابي: جدلية الزمان و تكون الفكر العلمي إلى اللغة الإنكليزية. لم أطلع على هذه الترجمات لأنني أفضل قراءة غاستون باشلار في الأصل.

أما المقارنة بين غاستون باشلار وكارل بوبر فهو مشروع إجازتي نصف السنوية (شتاء 2005). ذلك أنه من اللازم قراءة كل أعمال بوبر، مسألة تتطلب الوقت. لحسن الحظ فإن أغلب أعماله كتبها بالإنكليزية وبالتالي لا نطرح هنا مسألة للترجمات غير الدقيقة لعمله.

س/ بمناسبة هذا المشروع المتعلق ببوبر وباشلار، هل بإمكانكم إعطاء القارئ رسما لذلك؟

ج/ العمل الذي قدمته في "فيينا" بمناسبة مئوية ولادة كارل بوبر كان تحليلا مقارنا بين بعض المواقف اللا-وضعية. المظهر الأكثر قوة لهذا التماثل هو أن "التخمين" عند بوبر يشبه دور الاستقراء في العلم بالنسبة لغاستون باشلار. لقد

ابتدأ العمل باكتشافي لعرض أنجزه باشلار سنة 1936 بعد صدور "منطق الاكتشاف العلمي" لبوبر سنة 1934 في ألمانيا. وأعتقد بأن باشلار لم يدرك النقط الأكثر دقة لهذا العمل، ونظر خطأ إلى بوبر كنموذج للوضعية. وفي الواقع فإن بوبر أعلن منذ المقدمة بأنه يبتغي كليا إسقاط الوضعية المنطقية.

س/ أعرف بأنكم شاركتم مؤخرا في مدينة "ريو دي جانيرو" بالبرازيل في ندوة حول باشلار، ما هي الخطوط الكبرى لذلك؟

ج/ في ريو (Rio) شاركت بعمل يقيم الصلة بين بيداغوجيا باشلار ونقده للنسق التربوي الفرنسي مع النقد المعاصر للتربية العلمية بأميركا. بصدد هذه المسألة، فإن "الجمعية الأميركية لتطوير العلم" (AAAS) أصدرت عام 1989 كتاب \العلم لكل \الأميركيين. حيث نجد برنامجا تربويا بالنسبة للمدرسة الثانوية، بدت لي بأن فلسفته البيداغوجية مشابهة جدا لتلك التي جاء بها غاستون باشلار. أجد كذلك بأن نقد باشلار لمدرسة "Montessori" مهم جدا بالنسبة لأطروحتي، بحيث أن تدريس العلم في أميركا اجتاحته ميتودولوجيا "Maria montessori" من خلال ما بعد-حداثة العلم. لقد بين عملي مظاهر التماثل بين النقدات الموجهة للتربية العلمية في أميركا ثم نقدات باشلار في زمانه لمسألة الدوغمائية في التربية واكتفاء أساتذة الفيزياء بالوقوف عند "الروح الأستاذية"

عوض الانتقال لحظة إلى النفس التي تعاني "التدقيق". لقد تم تناول عملي بشكل مثير، وفوجئت كثيرا باكتشاف أن الزملاء البرازيليين وكذا طلبة المتريز والدكتوراه يعرفون سلفاً عملي حول غاستون باشلار.

س/توظفون في الغالب مفهوم "الفينومينو-تقنية" ما هي دلالته الحقيقة داخل السياق الباشلاري؟

ج/ "الفينومينو-تقنية" هي في الجوهر تعالٍ للفينومينولوجيا، نظرا للخاصية البنائية لأشياء العلم المعاصر (تقوم على الرياضيات والآلات). أظهرت في مقالتي حول "الفينومينو-تقنية" بأن المفهوم كان حاضرا في عمل غاستون باشلار منذ "المعرفة التقريبية" بل وقبل إبداع المفهوم سنة 1932. وبأنه شهد تطورا وتغيرا مع مرور الوقت.

س/انطلاقا من خبرتكم العلمية، ما هي الأسس الحديثة للعلم المعاصر؟

ج/بالتأكيد، تداخل الاختصاصات، وأهمية قبول الارتياب، والخطأ ثم النزوع إلى وجهات النظر.

س/قد يتحدث البعض عن تقادم إبستمولوجيا باشلار؟ ما تعليقكم؟

ج/ لا أعرف أشخاصا يعتقدون بأن فلسفة غاستون باشلار قد شاخت. ما أعرفه هو:

- كثير من الأشخاص لا يعرفون عمله.
- الترجمات نادرة وخاطئة. أنا بصدد تدريس غاستون

باشلار لطالب أميركي لا يقرأ بالفرنسية، وأجد في هذا السياق بأن ترجمة "الفكر العلمي الجديد"، حقا فظيعة.

- ارتباط تأويل غاستون باشلار بالبنائيين الاجتماعيين أو مفكري اليسار.

- أشخاص يقرؤون فقط مصادر ثانوية عن غاستون باشلار وبالتالي ليس لهم من سبيل إلى استنتاجات باشلار الدقيقة (لحسن الحظ فإن عمل الترجمة الذي قامت به Mary Mac Allester Jones) يظهر بأنه أفضل من الأعمال السابقة).

س/ما هي مشاريعكم المستقبلية حول باشلار؟

ج/أطمح مستقبلا إلى ترجمة "المادية العقلانية"، ثم إنجاز عمل عميق أقارن فيه بين باشلار وكارل بوبر.

خاتمة

لاشك أن إعطاء أي مشروع فكري طابع الاستمرارية والتجدد على مستوى الزمان الموضوعي، ثم وسمه بصفة الرصانة الفكرية والاجتهاد النظري فيما يخص تشكلاته الذاتية يحتم على الباحث، إيجاد الوسائل المنهجية والمفهومية الكفيلة بضمان صيرورة مبدعة وجادة.

في هذا الإطار، أعتقد بأن رسم مسار منفتح على مجموعة من الأبحاث المرتبطة بفكر غاستون باشلار ومساراته، يفرض على توجهي المعرفي ـ من خلال سلسلة باشلاريات ـ وضع رسم تخطيطي يمكن من إقامة علاقة مع قارئ محتمل في الزمان والمكان، أساسها الانفتاح والسجال والتساؤل الوجداني، من أجل تمثل القيم الكبيرة التي حكمت رؤية باشلار الفكرية والبيداغوجية والتربوية.

ولاشك كذلك، أن مبدأ التنوع والتعدد هو الكفيل وحده، بتحويل كل تجربة كيفما كان مضمونها والأطراف المكونة لها إلى صيغة قابلة للحياة باستمرار. انطلاقا من ذلك ارتأينا إضفاء طابع الليونة على هذه الإصدارات، فكان العمل الأول: غاستون باشلار: عقلانية حالمة، (2002) في شكل مجموعة من النصوص المترجمة، توخينا فيها كذلك التعدد فجاءت على الشكل التالي:

1-نصوص كتبها الفيلسوف نفسه.

2-نصوص من إنتاج تلامذة مباشرين لغاستون باشلار بمعنى أنهم عاينوا دروسه في المدرجات، أو غير مباشرين وذلك من خلال روابط الصداقة معه أو أنهم عاصروا حقبته. وبالتالي فكتابات كل هؤلاء تشكل مرجعية أساسية على مستوى الإحاطة وكذا تجميع المحيط الوثائقي للتأملات الباشلارية.

3-توظيفنا لوجهة نظر عربية في المقاربات الحديثة لفكر باشلار، وذلك من خلال نص يتناول مفهوم الزمان في السياق الباشلاري للباحث التونسي رضا عزوز.

4-الخصوصية الإبستمولوجية للقضايا التي تناولتها النصوص، وإن كانت ترتكز بشكل خاص أو تصب في الرافد الثاني من مشروع باشلار أي المتعلق بنظريته في الخيال الأدبي، إلا أنها تمس كذلك أهم المفاهيم التي انطوى عليها المتن الباشلاري مثل: الشعر، والصورة الشعرية، والخيال، والزمان، حدود العلاقة بين العلم والأدب، والمنهجية الممكنة لمقاربة الأدب، وسجالات باشلار الفلسفية.

5-وأخيرا توظيفنا لبعض النصوص التي تقارب طبيعة السياق التداولي لكتابات باشلار، داخل ثقافات أخرى غير الفرنسية مثل: الأنكلوساكسونية والجرمانية. ونقصد بذلك مجموعة الالتباسات التي تحيط بقضية الترجمة، وما ينتج عن ذلك من أخطاء على مستوى الفهم والتأويل.

العمل الحالي، والثاني في سلسلة باشلاريات والذي

يحمل عنوان: غاستون باشلار: نحو أفق للحلم، يسعى بدوره إلى مواصلة المسار نفسه، وفي إطار الأفق نفسه. لكن باستراتيجية أخرى مرتبطة أساسا بطموح شخصي كبير في تطوير عمليات: القراءة والكتابة والتفكير والإبداع.

الترجمة وحدها غير كافية، ليس لأن النص الباشلاري غني ومكثف جداً، وبالتالي فكل قراءة له هي في حقيقة الأمر اختزال قدري لتعدديته الدلالية، ولأن هوامش المترجم أهم بكثير من النص المترجم، لذلك لا أقتنع كثيرا بلعبة تناطح العلامات وأحس بالضجر والسأم من هذا الترحال الأبله دون حيز لما أسميه بمنطق الفراغات، أي قدرة اللغة على التوالد. شيء يتحول معه العالم ككائن لغوي بامتياز إلى حقل للحلم. وللإشارة فقط، لا نستحضر الممكن كشرط لذاته.

يسعى أصحاب النصوص المترجمة هنا، إلى تحديد طبيعة اللحظة المعرفية عند باشلار التي مكنت من التقاط التداخل بين الشعري والمفهومي. في الأعراف السابقة عن فيلسوفنا، تميزت هذه اللحظة بالتنافر، وحتى إن حصل تداخل فهو لا يؤدي إلى ولادة طبيعية. ثم النظر إلى الأول باعتباره انسيابا وانفلاتا، أما الثاني فقد صاحبته كل حمولات التقنين والضبط. لأن الأول عاطفة والثاني ذكاء. بقدر ما نرتاب من جسد القصيدة، فإن مسار المفهوم يرسم كبرياء للثقة والاستكانة.

المشروع الذي سيواصله باشلار بقوة من خلال نظريته في

الأدب وقبل ذلك أبحاثه في الإبستمولوجيا التاريخية، حسم المسألة بنتيجة محايدة، لا مجاملة ولكن سبرا وتقويما. لأن التاريخ لا يسير برجل واحدة، وإلا سيتعب.

القصيدة هنا "ذكاء" والرياضيات "جمالية"، نتيجة طبيعية لمعادلة تبدو غير "ممكنة". تتموضع صورة لرامبو أو إدغار آلان بو إلى جانب معادلة لإينشتاين؛ في الحالتين نحلم ونتخيل، وليس من اللازم أن نجعل من الواقع مرجعية للتأسيس أو التجاوز. الكون الماكروفيزيائي أو الميكروفيزيائي، حلم تحول من فانتازيا وممكنات لغوية على أبعد تقدير، إلى واقع موضوعي يمكن تحيينه باللغة الطبيعية.

هل يمكن أن نتحول في لحظة ما من عشقنا لنمط معين من المعرفة إلى توتالتاريين؟ ونعطي لأنفسنا الحق في تحديد الاختيارات، ونقول بأن المعارف في مجملها يمكن أن تختزل إلى لحظتين، تكشفان حقا عن الينابيع الكبرى والجوهرية لتمثل الأشياء والعالم، أقصد بذلك الفلسفة والشعر. ثنائية تعكس بصدق وبنهاية سعيدة كذلك، الوضع الوجودي لذات تؤسس لجسدها الفالت باستمرار، حيث يتأتى للمعرفة هنا خلق مجموعة من القصديات، تعطي لعلاقتنا بأجسادنا منحىً عكسياً.

تتحول الفلسفة إلى قضية شعرية حينما تصل إلى أفق لغوي غير نافذ، ويصير الشعر فلسفة في لحظة بالأحرى لا يفتقد فيه حس الصورة، ولكن يتمرأى ذاته من خلال لغة

الفراغات، بمعنى الانزياحات المجازية التي تجعل من المدلول ماهية للعدم.

ظل باشلار في مسيرته الفكرية يراقب مستويات انتفاء الحدود بين قيمة فكرية وجمالية اسمها "الخيال" أعطت اختراعا عجيبا اسمه "القنبلة الذرية"، انطلاقا من معادلات رياضية وهندسية في غاية التعقيد والتجريد، ووفق منظور يقوم على الحلم أولا وأخيرا. كما أن هذا الخيال يصوغ منظومة لغوية تحمل أقصى درجات الرمزية والجمالية.

كما هو الحال مع نصوص شعراء القصيدة الحديثة، الحس الجمالي ذاته وموقع الذات نفسه.

لذلك كان باشلار لا يتردد في توظيف نصوص الشعراء والاستشهاد بأنسقتهم، وكان صديقا كبيرا لهم وقارئا جيدا ومدمنا لمتونهم. يتجلى ذلك بالخصوص في مراسلاته الحميمية مع الشاعر لوي غيوم[1]. وتعليقاته الحميمية الصادقة على إنتاجات الشعراء الشباب والمبتدئين.

بهذا الخصوص أكدت كل الكتابات المتعلقة بسيرته الذاتية، على روح التواضع التي ميزت باشلار ـ مسألة ليست غريبة على فيلسوف كبير ـ فكان لا يتردد في الإجابة على كل المراسلات التي يتواصل بها حتى ولو كانت من قبل

---

(1) انظر بهذا الخصوص:

* "Bulletin d'association des amis de Gaston Bachelard", N° 4, 2002, Dossier: Hommage a Louis Guillaume.

مجهولين، بل في مواقع كثيرة من كتاباته يحيل على نصوص هؤلاء.

باشلار قارئ جيد للقصيدة، كما كان قبل ذلك مبدعا على مستوى مقارباته للنظرية العلمية، ونتيجة ذلك مدرسة فكرية جديدة ونوعية على مستوى تاريخ الإنسانية أفرزت ثورة مفهومية انطلقت بالأساس من إعادة النظر في الخيال باعتباره أداة التجديد والإبداع والبوتقة واللحمة التي تؤسس لأرضية التماثل بين نشاط العالم وهلوسات الشاعر مادام أن الواحد منهما يحيل على الآخر. وقد أدت هذه الثورة الكوبرنيكية ـ التعبير لباشلار نفسه ـ على مستوى ماهية الخيال، من خلال قراءة متأنية لما بين ثنايا أطروحاته، إلى الخلاصات الكبرى التالية:

* أولية الخيال على الإدراك من الناحية النفسية.
* التأكيد على استقلالية الخيال في علاقته بالواقع.
* تحويل الخيال إلى علم وتشييده كفيزياء أو كيمياء لأحلام اليقظة.
* الانحصار في الإشكال السيكولوجي للخيال.
* النظر إلى الخيال في محدداته المبدعة.
* القيام بتحليل موضوعي للخيال أدى بباشلار إلى صياغة نظريته في "الأمزجة المتخيلة".
* النظر إلى صور الخيال بوعي جديد يمكننا من ملامسة الأبعاد الدينامية للنفسية الجديدة التي يتوخاها باشلار.
* ربط الخيال بقدرته على توليد الحياة والفكر الجديدين.

منطلق ذلك الصور التي تفرزها اللغة المبدعة. وقد ظل باشلار يبحث عن المنهج الملائم لهذه اللغة، والقادر على التقاط النفس المنفلت للمعطى الجمالي، ليجده أخيرا في الظاهراتية.

* سيؤكد باشلار أن الإنسان الذي افتقد وظيفة اللاواقع، قد أصابه العصاب. حقيقة قلبت كل تاريخ الطب النفسي الغربي. بمعنى آخر، التأكيد على الخيال ليس فقط كمداواة ولكن كصيرورة معرفية ثم لأننا نحلم قبل أن نفكر.

في سعينا إذن، لمقاربة كل ذلك، انطلاقا من الأدوات التي قد نتوفر عليها، اخترنا كعنوان لهذه المحطة الجديدة من باشلاريات، صيغة تعبيرية تنهض على رغبة في التجاوز ومعانقة اللانهائي. وبلغة تراهن على السريان، ذلك أن المكونات الثلاثة: "نحو" و"أفق" و"للحلم"، تخلق بقوة مدارات اللا-مكان وبالتالي غياب كلي لأي بعد يمكن أن يحيل بشكل أو بأخر على الإرساء والتمركز، قيمة جمالية وأخلاقية نستشفها من جوهر فكر باشلار. توظيفنا لنصوص تتناول علاقة باشلار بالشعر والشعراء، كان يفرض إعطاء حقيقة عينية عن هذا الفيلسوف الحالم الذي يؤمن بأن القصيدة ليست مجرد استراحة من عناء البحث النظري، ولكنها ممارسة مشروعة، معرفية وضرورية لتأسيس روافد الفكر الجديد الذي نحلم به جميعا.

مراكش في: 02 /02 /2004.

تعاريف

- تريزا كاستيلاو-لاولس، باحثة أميركية من أصل برتغالي.

* حاصلة على الميتريز في الفلسفة من جامعة لشبونة، ثم الميتريز والدكتوراه في دراسات العلوم والتكنولوجيا من جامعة فيرجينيا.
* تعمل حاليا أستاذة بجامعة ميشيغان (Michigan). بالولايات المتحدة الأميركية حيث تدرس فلسفة العلوم وتاريخ العلم والإبستمولوجيا والإتيقا والعلم والدين.
* أصدرت مجموعة من الأبحاث باللغتين الفرنسية والإنكليزية.

- سعيد بوخليط.

عضو:

* اتحاد كتاب المغرب.
* جمعية أصدقاء غاستون باشلار (ديجون Dijon).
* جمعية أصدقاء الشاعر لوي غيوم (باريس).
* له عدة مقالات في مجموعة من المنابر الفكرية والإعلامية.
* البريد الاليكتروني: boukhlet10@gmail.com

* صدر له في إطار سلسلة باشلاريات:
* غاستون باشلار: عقلانية حالمة. ترجمة وتقديم. وذلك عن منشورات جريدة الآفاق المغربية. بمراكش سنة 2002.
* في انتظار النشر:
- الخطاب النقدي عند غاستون باشلار وشعرية العناصر الأربعة.

المحتويات

مقدمة 9
مدخل 19

القسم الأول
ترجمات

غاستون باشلار والشعراء 31
الفيلسوف والشاعر 53
باشلار والشعراء: حول صورتين للوي غيوم 66
باشلار عند العرب 81

القسم الثاني
قراءات

التحليل النفسي للنار: أو البحث عن حدود جديدة
للمنهج الباشلاري 111
غاستون باشلار عقلاني رومانسي 135

القسم الثالث
متابعات

خاتمة 181

تعاريف 188